لطفى السيد

والشخصية المصرية

الدكتور حسين فوزى النجار

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. محمود ديب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

الدكتور حسين فوزي النجار

لطفي السيد

والشخصية المصرية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة

١٩٦٣

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

الاهداء

الى أبي

المؤلف

تقديم

بقلم

الاستاذ أحمد خاكى

فى تاريخ مصر نواح ما زالت تنتظر المؤرخ ليفسرها ويوضحها لابناء العصر الحاضر . وقد كنا فى كتابة تاريخنا متأثرين بما كتبه الاجانب عنا ، فاعتمدنا عليهم كل الاعتماد . وما كان هؤلاء الاجانب يكتبون تاريخ مصر بحثا عن الحقيقة أو كشفا للمجهول بل كانوا يبدأون كتابته وهم يفرضون فروضا عامة هى فى نفسها مجموعة من الاباطيل ولا ينفذون قط الى جوهر الحقيقة متأثرين فى ذلك بالنظرة الغربية الاستعمارية التى تفسر التاريخ وتكتبه على هواها ولمصلحتها لذلك بقى تاريخ مصر ثم علاقاتها بالامة العربية ثم علاقاتها بغيرها من الدول فى حاجة الى الكتابة من جديد .

وقد قام مصريون فى مختلف الاجيال والعصور يمثلون أحسن عناصر الامة المصرية . وكان لهؤلاء من المبادىء والقيم ما دافعوا عنه ونافحوا عن وجوده فى شبابهم وكهولتهم . لكن مبادىء هؤلاء وقيمهم لا زالت مجهولة تريد أن يكشف عنها الكتاب والمؤرخون . ولعلنا نتفق مع هؤلاء المؤرخين اذ نقول ان شخصية الامة المصرية نفسها تتمثل فى هؤلاء المصريين الذين عاشوا على أرض الوطن بأفكارهم ومبادئهم ولكن الغاصب من ناحية والدخلاء من ناحية أخرى لم يمكنوهم من أن ينتقلوا من حيز الفكر الى حيز العمل . وقد جاءت الثورة الكبرى فى الثالث والعشرين من يولية سنة ١٩٥٢ فاطلقت

الفكر من عقاله ودفعت الكتاب والمؤرخين الى تفسير الحوادث وكتابة تاريخ جديد للشخصيات المصرية .

وهذا مجهود جديد بدأه الاستاذ الدكتور حسين فوزى النجار . وقد استطاع بفضل ثقافته الواسعة أن يحيط علما بشخصية معلم الجيل الاستاذ احمد لطفى السيد . وهو فى نظر الاستاذ المؤلف كما أنه فى نظر الكثيرين يمثل الشخصية المصرية وتفتحها أبان تلك الفترة العصيبة التى اجتازتها السياسة المصرية فى مطلع القرن العشرين وفى تلك السنوات التى كان فيها الاحتلال الانجليزى البغيض يجثم على أرض الوطن . ذلك أن لطفى السيد قد استطاع بثقافته أن يسمو بنفسه وبتفكيره على شتى الاتجاهات والعواطف وأن ينادى بأن تكون « مصر للمصريين » . وهو المبدأ الذى اعتنقته الوطنية المصرية فيما بعد والذى انتهت به الثورة الكبرى وانتقلت به من نطاق الامانى والافكار الى نطاق السياسة والعمل .

وسيجد الكاتب حين يتصدى لهذه الفترة من تاريخ مصر كثيرا من العناصر المتشابكة التى تتطلب التحليل .

وأول هذه العناصر أن مصر كانت طيلة القرن التاسع عشر وفى السنين الاولى من القرن العشرين فى وضع لا تنطبق عليه أصول القانون الدولى . فهى من جهة تابعة للسلطان العثمانى ومن جهة أخرى تتمتع باستقلال ذاتى يستند الى جيش وتؤيده معاهدات . ثم وقعت فى حوزة الاحتلال البريطانى البغيض فزادت الحال شذوذا .

وثانى هذه العناصر أن مصر قد سبقت دول الشرق الادنى جميعا فى تطورها القومى كما سبقت غيرها من بلاد

هذا الشرق الى اثنتين أولاهما الاتصال بالفكر الغربى بما فيه من مبادىء الحرية والاستقلال والتقدم وثانيهما احياء تراثها القديم بما فيه من مبادىء الكرامة والعزة والإباء . لذلك نضجت القومية فى مصر وتمثلت فى هذه الثورات الجياشة التى قامت على أرض الوطن . وكان من نتيجة ذلك أن مصر لم ترض بهذا الوضع الشاذ سواء من ناحية العلاقة بتركيا أو من ناحية الاحتلال الغاشم .

وينطوى تحت ذلك ما نلمحه فى حركتنا القومية مما يظنه البعض انه ازدواج فى الثقافة . فقد نشأ فى مصر زعماء من قادة الفكر كانوا ينظرون بعين الى ثقافتهم الاوروبية وينظرون بالعين الاخرى الى تراثهم القومى من تاريخ ودين وفن وتقاليد . وكان من هؤلاء رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين ومصطفى كامل ولطفى السيد . وما كان هناك ازدواج فى الثقافة أو ثنائية فى التفكير ، فقد كانت تربية هؤلاء وكثيرين غيرهم تحتم عليهم أن يستكشفوا تراثهم القديم فيروا فيه مبادىء الحرية والقومية والتقدم . وهذا هو الذى حدث فى التاريخ القومى عند سائر الامم والشعوب . فان الثقافة لا تعرف وطنا والحرية حق طبيعى لا ينمو فى بلد دون بلد آخر فاذا كنا قد استكشفنا تراثنا القومى فى النور الذى أضفته علينا الحضارة الغربية فان هذا لا يعنى أن تراثنا القومى ينبع من أية ثقافة غربية بل هو نابع من حياتنا وتاريخنا وواقعنا .

فى خلال هذه العناصر المتشابكة المتضادة استطاع الاستاذ المؤلف أن يلم بمبادىء واحد من عمالقة الفكر القومى فى مصر ، وأن يستخرج منها العناصر القيمة التى تفسر لنا تاريخنا الذى نعيشه اليوم . ولا شك ان الدافع له على كتابة هذا البحث هو ما جاء فى الميثاق حين قال السيد الرئيس :

« ومن عجب أن هذه الفترة التى ظن فيها الاستعمار والمتعاونون معه انها فترة الخمود ، كانت من أخصب الفترات فى تاريخ مصر بحثا فى أعماق النفس وتجميعا لطاقات الانطلاق من جديد » .

« لقد ارتفع صوت محمد عبده فى هذه الفترة ينادى بالاصلاح الدينى ، وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بأن تكون مصر للمصريين » .

« وارتفع صوت قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة » .

فهذا كتاب يفسر واقعنا وجدير بنا أن نطالع تاريخنا القومى خلال الافكار والمبادىء التى يمثلها محمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين ويوجهنا الى دراستها السيد الرئيس جمال عبد الناصر .

مقدمة المؤلف

مازال تاريخنا القومى الحديث صفحة بيضاء لم تتطرق اليها يد البحث والتنقيب بعد رغم ما فيه من عنف التطور الذى ألم بالمجتمع المصرى فى القرن الاخير .

وحين اتخذت الجريدة ــ وهى الصحيفة التى كان يحررها أستاذ الجيل لطفى السيد والتى كانت لسان حال حــزب الامة ــ موضوعات لرسالة الدكتوراه كنت أنشد من وراء هذا البحث ابراز حقيقة هذا التطور القومى واتجاهاته العــديدة التى أخذت تؤثر وتتأثر بكل ما ينبض به قلب مصر فى تلك السنوات التى شهدت امتداد الموجة الغربية بكل ما فيها من محاسن واضداد الى تلك البقاع العربية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط بعد ان خيمت عليه العزلة التى ضربتها الدولة العثمانية على أملاكها ردحا من الزمن كانت أوربا الناهضــة المتوثبة تتجنبه خلالها وتشق طريقها الى الشرق البعيدلاتلقى بالا الى هذا الشرق القريب بعد أن عرفت طريقها عبر البحار الواسعة الى عوالم فسيحة لم تطرقها قدم أوربى من قبل ، فما من شك فى أن قدوم الحملة الفرنسية الى مصر فى أخريات القرن الثامن عشر قد خلف آثارا بعيدة المدى لا فى مصروحدها بل وفى البلاد العربية المجاورة التى اعتادت طوال تاريخها أن تتلقى عن مصر كل اتجاه أو نزعة جديدة ولا سيما فى ميادين الفكر والثقافة .

ولم يكن أقل هذه الآثار عنفا ان الشرق العربى وخاصــة فى مصر قد أخذ يستيقظ على دنيا جديدة أنكرها فى بداية أمره.

ثم راح يتحسسها حتى رأى الخير فى أن يزود آفاقها ليتعرف الى حقيقتها ، ثم رأى نفسه منساقا اليها متأثرا بها ، بل أن أعنف مافيها قد تمثل فى الصدام الفكرى بين الفكر الشرقى فى جموده والفكر الغربى فى تحرره وانطلاقه .

ولقد بلغ عنف هذا الصدام مداه فى مصر فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حتى طغت الموجة الغربية وجرفت كل ما فى طريقها واخذ دعاتها وروادها يؤكدون حيويتها فى كل ما يسفر عنه التقدم السياسي والفكرى والاقتصادى والاجتماعى فى أوربا من آثار وقف الشرق امامها عاجزا مبهورا يتأمل أسباب هذا التقدم فيقيسها الى تخلفه ويرى الهوة واسعة بينهما ، ويومذاك أخذ هؤلاء الرواد الاوائل كل فى ميدانه يؤكد الاخذ بأسباب الحضارة الغربية ومراميها فرأينا الدعوة الى تحرير المرأة وسفورها يتبناها قاسم أمين فيضع بذلك اللبنة الاولى فى تطور المجتمع الشرقى لا فى مصر وحدها بل فى كل البلاد الشرقية الاخرى التى قبعت المرأة فيها عاطلة وراء أستار الشك والجهل ، ورأينا الدعوة الى التمدين الغربى والاخذ بأسباب القوة التى سادت عن طريقها أوربا ينادى بها مصلح الاسلام الكبير جمال الدين الافغانى ، ورأينا حركة الاصلاح الدينى يقودها الامام محمد عبده كما رأينا محاولات جادة لاصلاح نظام التعليم ومناهجه وخططه وأهدافه تستوعب جهود المصلحين جميعا داخل وزارة المعارف وخارجها على حد سواء فلم تخل حركة اصلاحية من البدء بالتعليم واعتباره أساسا لكل تقدم ولبنة صلبة فى كل اصلاح .

ثم رأينا آثار الموجة الغربية تمتد لتسع كل جوانب الحياة فالدعوة الى التحرر الاقتصادى فى كل جوانب الحياة الاقتصادية تأخذ بلب طلعت حرب حتى يقتحم بها الميدان غازيا

فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ويكسب النصر فى كل معاركها .

وما كانت دعوة استاذ الجيل أحمد لطفى السيد « مصر للمصريين » الا أثرا من آثار امتداد تلك الموجة الغربية ، فقد أخذت عبارة مصر للمصريين على يديه معنى جديدا هو غير ما عرفته الثورة العرابية ، فلم تكن لدى العرابيين لتعنى أكثر من مساواة المصريين بالترك ، أما فى خاطر لطفى السيد فقد التبست بتلك المعانى القومية التى سادت أوربا خلال القرن التاسع عشر ، حيث تتمثل الدولة القومية فى سيادتها على أراضيها وفى نوع العلاقة التى تربط بين الحاكم والمحكوم واعتراف المجتمع الدولى بها كدولة مستقلة ذات سيادة .

ويعنى ذلك بالنسبة لمصر انفصالها عن تركيا وتحررها من الاحتلال البريطانى وقيام حكم دستورى بها وتحقيق كيانها العام فى المجتمع الدولى .

ولم يكن هذا الاتجاه القومى مفهوما فى مصر حيث ارتبط الكيان العام للوجود المصرى بدولة الخلافة والرابطة الاسلامية العامة وحيث تضمنت معاهدة لندن ١٨٤٠ تنظيم قواعد هذا الارتباط وأسسه .

لذلك بدت دعوة لطفى السيد غريبة على الاذهان حتى لدى أولئك الناس الذين يمثلهم وينطق بلسانهم على صفحات الجريدة من اعضاء حزب الامة ، فما كانوا هم الآخرون يستسيغون هذا الاتجاه القومى الغريب عليهم وما كانوا يبغون أكثر من مشاركة الخديو فى الحكم مشاركة تضمن لهم حماية مصالحهم .

وكثيرا ما ارتدت تلك الموجة الغربية أمام صلابة الصخور التى تصطدم بها وما كانت تلك الموجة لتصدم غير صخور صلبة . فاتهم قاسم أمين بالاباحية ومحمد عبده بالالحاد

ولطفى السيد بالخيانة بل كاد يقدم للمحاكمة بسبب دعوته للاستقلال وحين طالب باستقلال مصر عن الدولة العثمانية اثناء الحرب الايطالية التركية وصف محمد سعيد باشا رئيس النظار ذلك « بأنه الخيانة العظمى » .

ولكن سرعان ما طفت تلك الموجة الغربية وجرفت أمامها كل السدود والقيود وأخذت الحياة تستقيم فى مصر على نهج غربى محافظ بمعنى الاخذ بأسباب التمدين الغربى مع الحفاظ على التقاليد والمأثورات القومية الصالحة .

وحركة المد والجزر تلك التى سادت المجتمع المصرى خلال القرن الاخير والتى شملت كل مناهج الحياة والفكر فى وطننا هذا هى التى حملتنى يوما أن اتخذها موضوعا لرسالة الدكتوراه فلم أجد أصلح من « الجريدة ولطفى السيد » موضوعا لتلك الدراسة الشاملة .

ولعل أبرز جانب فى تلك الدراسة أن الشخصية المصرية قد أخذت تسفر عن حقيقتها خلال تلك الفترة التى تناولتها بالدراسة وكان لطفى السيد أصدق مثل لها .

وسيرى القارىء فى كتابنا هذا كيف تتبعت الجذور الاصيلة للشخصية المصرية فى تكاملها عبر التاريخ وكيف انها رغم المحن التى المت بها لم تفقد ذاتها وأصالتها وأن غامت حقيقتها تحت ظروف طارئة حتى انبعثت مرة أخرى كما كانت خلال تاريخها الطويل قوية أصيلة نامية وكيف أقامها لطفى السيد على النهج القويم من أصالتها ..

ولعلى بتلك المحاولة قد نجحت فى أن أطرق جانبا من جوانب تاريخنا القومى والاجتماعى ما زال غفلا لم تتناوله يد البحث والتنقيب .

وثمة ناحية أخرى تتمثل فيها أنانية المؤرخ والكاتب حين يكتب عن شخصية يحبها ويصل بينه وبينها ، الا انها فى الواقع ناحية يرى فيها المؤرخ ما ينشده من مثل أعلى يتمثل فى تلك الشخصية الباهرة التى يحبها ويكتب عنها ، فان الصلة التى تربط بينى وبين أستاذنا أحمد لطفى السيد هى الصلة التى تقوم بين الاسر الريفية فى صعيد واحد ، فنحن جميعا ننتمى الى مركز السنبلاوين بل نحن ابناء منطقة واحدة تعرف لدينا باسم « بلاد الجزيرة » وكثيرا ماكنا أبناء دائرة انتخابية واحدة وحين قدمنى اليه أستاذى وابى الروحى المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل عام ١٩٣٢ وكنت ما أزال بعد فى أول مراحل التعليم الثانوى بهرتنى شخصيته التى تمثلت فيها كل مافى الريف من أصالة وعمق ورجولة تنمو مع أبناء الاسر الريفية الطيبة بعيدا عن عقد المدينة ومتناقضاتها وسطوة الحكم فيها فما كان أبناء تلك الاسرة الريفية الا سادة بلادهم وقراهم تربطهم ببلادهم وأقوامهم روابط عديدة تقوم على الايثار والمحبة وتتمثل فيها الابوة والاخوة بأجلى معانيهما .

وقد عاش الريف المصرى — وخاصة الريف الذى نجا من أوضار الاقطاع التركى وكان ريفنا فى بلاد الجزيرة من قرى مركز السنبلاوين مما انقذته صعوبة الاوصول اليه من طمع الاقطاع ومن سيطرة الحاكم التركى وهو هذا الريف الذى وصفه أستاذنا هيكل فى قصته « زينب » — عاش هذا الريف المصرى حفيظا على تقاليده من الايثار والمحبة وجلال الابوة وكرم الاخوة فى ظل تلك الاسر الطيبة زمنا طويلا حتى اجتاحته المدينة ونزح عنه بنوه اليها ففقد بذلك الكثير من اصالته وعرافته .

وأستاذنا لطفى السيد صورة رائعة لهذا الريف المصرى

فى اصالته وعرافته ونبله ، أضفى عليه التمدين الغربى والفكر الشرقى الذى تمثل حضارة الغرب والشرق كل جلال يضفيه التقدم والارتقاء على أصحابه ودعاته .

لهذا أحببت لطفى السيد وأحببت الكتابة عنه وحببنى فيه غير ذلك كله تلك الصلات الروحية والعائلية التى ربطت بينه وبين أستاذى المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل وما قام بين أسراتنا من صلات استمرت على الزمن .

ثم أن لطفى السيد فضلا عن ذلك كله يمثل فى تاريخنا القومى نمو الاسرة المصرية الصميمة منذ اخذت تحتل مكانها القمين بها فى المجتمع المصرى وتزيح عنه الاسرة التركية بتقاليدها وعنجهيتها فان جيل لطفى السيد يمثل تمام اكتمال تطور الاسرة المصرية وظهورها وذوبان العنصر التركى فيها ثم سيادتها هى أخيرا .

فتاريخ لطفى السيد وجهاده ثم دعوته « مصر للمصريين » هو تاريخ للقرن الاخير من تاريخ مصر العام .

ولعلى فى يوم من الايام مستطيعا أن أفى هذا الجانب من جوانب تاريخنا القومى والاجتماعى حقه من الدراسة والبحث القمين بهما .

والله ولى التوفيق

دكتور حسين فوزى النجار

المعادى فى غرة رمضان ١٣٨٢

يناير ١٩٦٣

الشخصية المصرية في التاريخ

الشخصية المصرية فى التاريخ

« على أن روح هذا الشعب لم تستسلم وانما »
« استطاعت تحت المحن العصيبة أن تختزن طاقات »
« تحفزت لاطلاقها فى اللحظة المناسبة »

الميثاق

درجت الحياة والحضارة على أرض هذا الوادى منذ بدأ التاريخ يخط سطوره الأولى ، فكانت الحضارة المصرية أعرق حضارة شهدتها الانسانية ، وكانت حياة الانسان المتمدين فى مصر أقدم حيوات الانسان جميعا ، وبزغ فجر الضمير من مصر — كما يقول المصرولوجى « جيمس هنرى برستد » — قبل أن تتهيأ للمجتمعات الانسانية الأخرى عوامل التجمع المصرى كأكمل ما تكون المجتمعات الراقية وحدة واتساقا وتكاملا قبل أن تتهيأ للمجتمعات الانسانية الأخرى عوامل التجمع والاستقرار .

وكان لطابع البيئة ما مهد للانسان فى مصر عوامل التجمع والوحدة الشاملة والاستقرار الدائم ، ثم كانت هذه الحضارة الزاهرة التى سبقت حضارات العالم أجمع نتاج التفاعل الدائم بين البيئة والانسان، فقد واتت الطبيعة هذه البيئة المصرية من العوامل ما جعلها مسرحا صالحا لأن تثمر فيه جهود الانسان فى بعث حضارة وطيدة اتصلت حلقاتها ، فاستطاعت أن تغالب الدهر وتبقى على الزمن وهى فى مسارها لم تفقد يوما صلتها بماضيها ، واحتفظت بمقوماتها جلية بارزة .

وكان أول هذه العوامل هذه العزلة التى درج فيها الانسان

على أرض الوادى وتلك الطمأنينة التى شملت حياته جميعا والتى منحته الطبيعة اياها ، وهذا الحب الذى ربط بينــه وبين الأرض التى يفلحها ويعيش على برها وخيرها ويخلص لها الوفاء

فهذه الصحراء على الجانبين وذلك البحر فى الشمال جعــلا مصر فى عزلة آمنة للبناء والاستقرار وتأصل العادات والتقاليــد فقد حمتها هذه الحدود الطبيعية كما يقول « هـ . ج ولز » من غارات الشعوب المجاورة ، ومكن لحضارتها العريقة أن تستكمل أسباب قوتها ونمائها فى خدر آمن منيع .

ولم تفقد مصر فى عزلتها هذه صلتها بالعالم الخارجى ، فكانت بعوثها البحرية تجوب البحار ناقلة ألوان الحضارة الى الشــعوب المجاورة فى الشمال حيث سواحل فينيقية الغنية والى الجنــوب حيث بلاد « البونت » ، وكانت هذه الصلات الخارجية غــذاء جديدا للحضــارة فى مصر تمثلتــه العقلية المصرية ، فكان عاملا جديدا من عوامل قوتها ونمائها .

والى جانب هذه العزلة الآمنة جرت الحياة فى مصر فى سهولة ولين يسرهما خصب الأرض ونظام ثابت فرضــه جريان النهــر الخالد .

فاذا كانت مصر « هبة النيل » ـ كما يقول « هيرودوتس » ،

واذا كان النيل قد وهب مصر واديا أخضر يفيض بالخير والثروة ، فان النيل أيضا قد رسم معالم الحضـــارة الأولى فى واديه ، وعلم المصريين النظام ، وطبعهم بالوحدة ، وجعلهم ينعمـــون الفكر فى تنظيم جريه وفيضانه كل عام .

والى جانب هذين العاملين يأتى موقع مصر الجغرافى فى مجمع قارات العالم القديم وفى ملتقى بحرين عظيمين قامت فى حوضهما أولى حضارات الدنيا جميعا ، فمن هذا الموقع كانت تطل فى كل أدوار تاريخها على مسالك التجارة فى العالم ، وفيه تتلاقى ثقافات الدنيا جميعا وحضارتها ، لتصهرها الطبيعة المصرية خالصة قوية .

هذه هى العوامل التى درجت فى رحابها الحياة والحضارة فى مصر القـــديمة ، ومنحتها البقـــاء والخلود ، ووسمتها بالقـــدم والاستمرار وهما أبرز سمات الحياة فى مصر على مدى التاريخ كله .

ومن هذه العوامل تنبع كل مقومات الشخصية المصرية المتميزة البارزة بكل تقاليدها ومأثوراتها الخالدة على الزمن .

فاذا كانت الحياة فى مصر قد انفردت بطابع خاص فرضـــته عوامل محددة ثابتة فان الشخصية المصرية قد استمدت أصـــالتها من أصالة الحياة فى مصر ، وطبعتها تلك العوامل المحددة الثابتة بطابعها الفذ الفريد .

وأبرز ما تتسم به الشخصية المصرية سمتان : أولاهما وحدة الشعور والأخرى الأصالة الدينية ، وما من سمة من هاتين السمتين الا وتتصل بعامل من تلك العوامل التى فرضت نفسها على البيئة والتاريخ فى مصر .

فوحدة الشعور لاشك وليدة تلك العزلة التى ضربت أستارها على الوادى لأحقاب طوال ، كما هى وليدة هذا التشابه والاتساق الذى يسير عليه النهر فى جريه وفيضانه ، وتلك الصورة المتكررة للأرض فى زرعها وحصادها .

والاصالة الدينية وليدة الاستقراء والتأمل لطبيعة الوادى ، فالشمس والقمر يجريان بقدر ، يصوران فى جريانهما الدائب قصة الأزل ــ الحياة والموت والخلود ــ والسماء الصافية بنجــومها المنثورة تبعث على التفكير فى وحدة الكون ، واستجلاء أسراره ، والأرض حين تتلقى الحب فتنبته زرعا أخضر ينمــو حتى يحــين حصاده ، تحكى قصة الحياة فى بعثها وفى فنائها ، فلا غرو أن كان المعبد والمقبرة صنوى الحياة وسمتى الخلود فى مصر ، وأن كان « كتاب الموتى » أروع ما خلف المصريون من روائع الفكر الأدبى وفلسفة الأخلاق والدين .

فمن وحدة الشعور تنبع كل مقومات الحياة فى النفس المصرية فيها تتفاعل كل مأثورات المصريين وتقاليدهم .

ومن عمق الاصالة الدينية تبرز قواعد السلوك والأخلاق عند لصريين ، وتمتزج مقومات شخصيتهم بكل معنى من معانيها .

فاذا ذهبنا عبر التاريخ منذ أن درجت الحياة على ظهر هـذا لوادى الى وقتنا هذا لا نجد أشـد أثرا من هاتين السمتين فى ، تكوين الشخصية المصرية وأبراز ملامحها ، ولا نجد تفسيرا طبائع الحياة فى مصر فى تطورها الحثيث وجمـودها اللين المرن صدق من تفسيرها على هدى هاتين السمتين : وحدة الشعور وعمق الاصالة الدينية ، فاذا لا نرى أمة من أمم العالم يجتمع لأفـرادها من وحدة الشعور ما اجتمع للمصريين ، فهم يحسـون احساسا واحدا ، ويفكرون تفكيرا متجانسا يدفع بهم الى اتجاهات متشابهة يجمعون عليها ، ويؤمنون بها ، فلا يشذ عنها فرد ولا يخرج عنها اسان بالرغم مما قد يبدو من تناقضهم وتباين آرائهم فى النظر الى الأشياء والمواقف الجديدة ، فهم لا يختلفون حتى يجمعوا ، ولا تتباين آراؤهم حتى تتحـد فى الغاية ، وتسلك مجـراها المعلوم .. وهم حين يختلفون وحـين يجمعون لا يفـكرون فى اتجاهات هذه الأحاسيس المختلفة ، ولكن وحـدة الشعور التى

تميز اتجاهاتهم جميعا والتى تتسم بها أهدافهم ترينا مدى ما فى هذه الأحاسيس من وحدة وتجانس ، وترينا مدى اجماعهم على عرض واحد واقدامهم على فكرة واحدة .

وتبدو هذه الظاهرة من وحـدة الشعور والتجاوب النفسى أقوى ما تكون حين يتجه المصريون جميعا الى عمل معين ، أو حين تلم بهم عادية من العوادى تهدد وجودهم أو قوميتهم أو عقيدتهم أو بعض تقاليدهم ومأثوراتهم .

وهذه الظاهرة من وحدة الشعور هى التى تحميهم من الانهيار الذى يصيب الأمم حين تهرم وتشيخ ، فتتجدد من شبابهم وتبعثهم أمة فتية قوية كأشد ما تكون الأمم حيوية ونماء ، وكأن عوادى الزمن لم تكن قد أصابتها بالأمس وهدت من كيانها فى الماضى ، ولقد يخطىء الانسان حين يشاهد علامات هذا البعث الجديد ، فيظنه خلقا جديدا لا يمت الى الماضى بصلة ولا يتصل به بنسب ، ولكن هذه الجذور العميقة من وحدة الشعور التى تربط المصريين جميعا بعضهم ببعض كما تربط ماضـيهم بحاضرهم هى التى حفـزت بعثهم ، وأيقظتهم من سباتهم ، فاذا هم يبهرون العـالم بالبعث الجديد .

وتقوم أحداث التاريخ شاهدا قويا على وحدة الشعور هذه

بين المصريين ، فان أعمالهم وحوافزهم النفسية لا تسبقها المقدمات تهيء الرأى العام لقبول فكرة بعينها ، اذ أنهم يدركون باحساسهم ووجدانهم ما يدركه « الغير » بعقله وتفكيره ، فلقد مرت بالعقلية المصرية كل التجارب التى مرت بالعقل البشرى منـــذ نشوئه ، ورسبت فى قرارها وفى أعماقها كل طبائع البشرية منـــذ نشأتها ، فلم تعد تحتاج فى فهمها أو ادراكها الى كثير من العناء أو الجهـــد العقلى مما تحتاج اليه الشعوب المحدثة الناشئة التى لا تجد فى دوافع النفس الخفية والهامها الغامر ما يغنيها عن دلالات المنطق وهدى العقل .

ولقد قلنا أن وحدة الشعور التى تربط المصريين بعضهم الى بعض كما تربط حاضرهم بماضيهم هى وليـــدة البيئة ، فالنهـــر بفيضه الزاخر الذى يكتسح القرى والســـدود ، ويغمر الأرض والزرع ، يدعو القوم الى السهر عليه وحماية أنفسهم وأرضـــهم من طغيانه ، تدفعهم روح الجماعة بكل ما فيها من حوافز الحرص على الحياة والشعور الواحد بما يتعرضـــون له من خطر مشترك ما ثم يروضوا النهر على هواهم ولمنفعتهم .

ولا ريب أن هذا العمـــل المشترك من جانب المصريين جميعا لترويض النهر كانأول مارسب فى نفوس القوم من وحدة الحافز ،

ووحدة العمل ، ووحدة الغرض ، وقدرة العمل الجماعى ، والتعاون الكامل ، وقد سبق هذا العمل المشترك بوقت طويل اجتماع القوم على ترويض الطبيعة القاسية حين أخـذ الجفاف يجتاح مواطنهم الأولى فى الصحراء بعد نهاية العصر المطير ، فيهجرونها الى حفافى الوادى ، يحفزهم الحرص الغريزى على الحياة ، وتدفعهم روح المغامرة والبطولة والأقدام الى تحدى قسـوة الطبيعة وترويض هذه البيئة الجديدة فى مستنقعات النهر ، ويظفرون من جولتهم الأولى فى الوادى بمواءمة البيئة لمطالب حياتهم .

وهذا العمل فى ذاته ضرب من ضروب البطولة الباهرة ، فان أقسى ما يواجه الانسان أن يتكيف هو وبيئة جـديدة لا تصلها ببيئته الأولى آصرة من شبه أو تقارب ، وليست القسوة فى هذا التكيف أنه تكيف اجتماعى ينزل فيه الانسان على حكم مأثورات وتقاليد جديدة عليه ، فهذا أيسر أنواع التغير والتكيف ، ولكن القسوة فيه أن الانسان يواجه ظروفا بيئية مختلفة تماما عن ظروف بيئته الأولى لا من حيث اختلاف « الطقس والمناخ » ولكن من حيث القدرة على توفير مطالب العيش ، وتذليل البيئة الجـديدة وترويضها لتمده بمطالب عيشه وحياته .

ولا ريب أن هذا العمل كان عملا جماعيا ، فليس فى قدرة أى

فرد مهما أوتى من بطولة وأقدام أن يخوض بمفرده معركة ضد الطبيعة ، وأكثر من هذا أن ذلك العمل الجماعى كان يدفعه شعور مشترك وتنظيم دقيق لوحدة الجماعة وقيادة باهرة لتوجيه جهود الفرد لخير الجماعة .

وظل هذا الشعور المشترك الذى أصبح فيما بعد سمة من سمات العقل المصرى يقود القوم فى بناء معالم حضارتهم العظيمة ، فالحضارة المصرية حضارة أبدعتها الجماعة ، وليست من عمل الفرد حتى لو نسبت الى أولئك الفراعنة العظام ، فنحن لا نسمع عن مبدعى تلك الحضارة وبناتها ما نسمع عن مبدعى الحضارة اليونانية وبناتها اذ ليس فى مصر سقراط ولا أفلاطون ولا أرستوفان ، ولكن فيها أهرام عظيمة ما زالت أعجازا فى فن المعمار وجبروت الانسان وان كنا لا نعرف المهندس الذى وضع تصميمها ، وفيها المعابد والمقابر والنقوش التى شادتها السواعد المصرية ووضع تصميمها عقل مصرى باهر لا نعرف عنه شيئا كما نعرف من قامت ومن أمر باقامتها ، وفيها التحنيط ولا نعرف الطبيب الأول الذى أبدع هذا الاعجاز فى حفظ الاجساد من البلى كما نعرف لماذا كان التحنيط ، وفيها ترويض النهر وبناء السدود والخزانات ، لا تخلد عمل الفرد كما تخلد عمل الجماعة والتنظيم

الجماعى الدقيق والقيادة الحكيمة ، ومدنية المجتمع الزراعى الرفيعة فيها من عمل الجماعة أكثر مما فيها من عمل الفرد .

وقد نقول أن وحدة الشعور هى طابع الفكر الجماعى ، أما الشعور الفرد فهو طابع الاستقلال الفكرى ، وبهذا كانت الحضارة المصرية حضارة المصريين ، حضارة الجماعة ، أما الحضارة اليونانية فهى حضارة سقراط وأفلاطون وأرسطو وأرستوفان ، حضارة انفرد فى نبوغه وتفوقه ، حضارة التحرر الفكرى فى نمائه وازدهاره .

وهذا هو الفرق بين طابع الحضارة السامية والحضارة الآرية .

وهذه السمة من وحدة لشعور لدى المصريين هى التى قومت شخصيتهم ، فالشخصية اذ تتكون ـ كما يقول علماء النفس ـ تتكون من وحى الفرد : وحى ذاته ووحى بيئته ، وكان التفكير الغالب على المصريين كما قلنا هو التفكير المشترك والشعور الواحد ، فلا غرو أن كانت وحدة الشعور أولى مقومات شخصيتهم وسمتها الأولى .

ولا غرو اذا كانت تلك الحقيقة هى التى اهتدى اليها جمال عبد الناصر فى تحليله لتاريخ مصر وانطلاقاتها الثورية وهو

يستوحى مقـومات تلك الشخصية المصرية الباهرة فى وحـدتها وانساقها حين يضع الخطوط الرئيسية لمستقبلها الحافل .

وقد نمت وحدة الشعور هذه لدى المصريين بمرور الزمن . وكلما تقادم عليها العهـد أضحت أكثر أصالة وعمقا ، وقوى من جذورها فى النفس المصرية تلك العزلة التى ضربت أطنـابها على الوادى لأحقاب طوال ، فقد سلم المصريون من غارات الشعـوب المجاورة ، فلم تتعرض بلادهم لما تعرضت له تلك البلدان المجاورة فى الهلال الخصيب من غارات البـدو أو الرعاة الذين يدفعهـم القحط وتحملهم المجاعة على اجتياح المراتع المزهرة الخصبة ، لذلك لم تعمر حضارات الهلال الخصيب ما عمرت الحضـارة المصرية القديمة ، ولم تعد لتلك الحضارات سمة البقاء والاستمرار التى أصبحت سمة الحضارة المصرية القديمة ، بل سمة الوجود المصرى فى اتصال ماضيه بحاضره .

وحين قدر لجمـاعة من الرعاة فى عهـد الدولة الوسطى أن يجتاحوا « دلتا » النيل ويمدوا سلطانهم الى أقرب صعيده ، لم يتأثر المصريون بهم قدر ما تأثروا هم بالمصريين ، وحين ارتحلوا لم يخلفوا وراءهم أثرا يذكر . وصان المصريون عباداتهم وتقاليدهم ومأثوراتهم من أن تتأثر بهؤلاء الاغراب ، ولم يأخـذ المصريون

عنهم الا بعض «تكنيك» الحرب وآلات القتال كالعربة والجواد . ثم اندفعوا وراءهم مطاردين الى فلسطين ، فكان هذا بداية الامتداد المصرى الى الوطن العربى القديم ، حيث أخذ المصريون يتصلون بأبناء عمومتهم ويطالعون ألوانا جديدة من الحضارة ظهر تأثيرها فى نشوء عبادة آتون ، ولكنهم فى اتصالهم هذا كانوا معلمين وهداة وأصحاب حضارة غالبة متفوقة ، وكانوا حماة للشعوب السامية العربية فى الهلال الخصيب من سيطرة الأقوام الهند أوربية التى بدأت تجتاح المواطن السامية منذ ذلك الحين وتعلن بداية تحرك الموجات الآرية فى تاريخ البشرية ، فقد كانت انطلاقة الحيثيين نحو الهلال الخصيب أول احتكاك بين الشعوب الهند أوربية والشعوب السامية * .

وبالرغم من اتصال المصريين بالشعوب المجاورة سامية أو آرية — اتصال سيادة وحكم فى عهد الأمبراطورية فان هذا

(*) الشعوب السامية هى الشعوب العربية وقد بينا مدلول هذه المسميات فى كتابنا « أرض الميعاد » وفى الكتيب الذى صدر لنا فى سلسلة « اخترنا للطالب » بعنوان « الامة العربية » وأثبتنا فيه أن مصطلح « الشعوب السامية » أصلح منه مصطلح «الشعوب العربية» وان لفظ « عربى » أدق فى الدلالة على تلك الشعوب من لفظ « سامى » .

الاتصال لم يترك آثارا بعيدة المدى فى عادات المصريين وتقاليدهم وعباداتهم ، ولم تلق المحاولة التى قام بها اخناتون فى نشر ديانة جديدة هى ديانة « آتون » تمت الى أصول آسيوية نجاحا وانتهى أمرها بالفشل الذريع .

ولو لم يكن هذا الشعور المشترك الذى يطبع شخصية المصريين بطابعه القاهر الغلاب فى مواجهة الأحداث والنوازع الطارئة ، لكان من الممكن أن تلقى عبادة « آتون » نوعا من الذيوع بين فريق من المصريين ، فالمصريون لا يقبلون على شىء ما لم يمتد الايمان به من الفرد الى الجماعة ، لهذا كان أقبال المصريين على اعتناق المسيحية ثم الاسلام اقبالا جماعيا عاما ولم يكن قبولا فرديا .

ولهذا كانت التقاليد والمأثورات أكثر اصالة فى مصر منها فى أى بلد آخر من بلدان العالم ، وليس القدم وليست العزلة وحدهما هما اللذان صانا على المصريين تقاليدهم ومأثوراتهم ولكنها وحدة الشعور التى تجمعهم وتربط بينهم كما تربط ماضيهم بحاضرهم .

ولعل صفة البقاء والاستمرار التى عرفها المؤرخون عن تطور التاريخ فى مصر والتى نسبها المؤرخ « أرنولد توينبى » الى اقترانها بعملية « التغيير والتجديد » هى فى الحقيقة أكثر اقترانا

بوحدة الشعور منها بعملية « التغيير » فوحدة الشعور أدعى الى البقاء والاستمرار : والتغيير والتجديد طابعا الوجود كله منذ كان الوجود ، يستوى فى ذلك ما باد وما هو موجود وما هو آت ، واذا كان « دارون » قد أخضع تطور الحياة لعملية تغيير مستمر ، لا يتأتى بدونها ارتقاء الأنواع ، فان ذلك لم يحل اطلاقا دون فناء أنواع بعينها لم تستطع أن تجارى سنة التغيير الذى واجهها خلال حقب تغيرت فيها الحياة تماما بالنسبة لها ، وربما لا تتفـق سنن التطور البيلوجى للانواع وسنن التطور الاجتماعى للامم ، ولكن هناك من الجماعات الانسانية ما واجهت ظروفا اجتماعية قاسية لم تتح لها أسباب التقدم والارتقاء ، فبادت وعفا ذكرها ، فالتغيير الذى ألم بها كان سببا من أسـباب انهيارها وفنـائها ، بل لعله السبب الأول .

فالتغيير اذن ليس حدثا فى تطور الأمم والجماعات ، وليس سببا من أسباب البقاء والاستمرار ، ولكن اذا قدر لجماعـة من الجماعات أن توفق بين عملية الاستمرار وعملية التغيير فان ذلك لا يتأتى مالم تدفعها قوى لا شعورية تتفاعل هى وعمليتا الاستمرار والتغيير ، وهـذه القوى اللاشـعورية هى التى تبدو مظاهرها فيما نسميه وحدة الشعور .

وهــذه العملية اللاشعورية هى التى ينسب اليها الأســتاذ « سبروت » كل مظاهر التقدم الانسانى ، ويصفها « سبروت » بأنها تسلك طريقهــا مستقلة عن تفكير الناس وشــعورهم وان تأثرت به .

ويفسر لنــا ذلك قول الفيلســوف « رينان » ، « مصر فى شيخوختها هى مصر فى طفولتها حتى لكأن حضــارتها قد ولدت مكتملة النماء » ، كما يفسر لنا أيضا قول الأستاذ «شفيق غربال» « الفلاح المصرى يبدو فى عيشته كما كان يعيش أجداده فى عصر الأهرام » و « أسس الرخاء والحكومة الصالحة واحدة فى الماضى وفى الحاضر » واذا كان الأســتاذ « غربال » يرجع تلك الظاهرة الى سكون الشرق وحركة الغرب ، فليس هذا تعليلا صحيحا فان السكون ينتهى دائما الى الزوال والفناء بل انه لا يتفق مع قدرة المصريين على الاستجابة المرنة لقوى التحدى التى تقع عليهم .

ولعل استقراء « جوستاف لوبون » للحضارة المصرية أصدق استقراء لحقيقة القوى الواقعة فى المجتمع المصرى ، فانه اذ يرى « مصر الفرعونية حية فى مصر العربية باقية فى مصرنا الحاضرة » يصدق حسه بعمق العوامل النفسية التى لعبت دورها على مسرح التاريخ المصرى ، وقد يغلب حس الفيلسوف الاجتمــاعى حس

المؤرخ ذى النظـرة التجريدية لظـواهر التاريخ ، فالفيلسوف الاجتماعى لا ينكر تلك الصـلات النفسية التى تربط الشعوب بماضيها كما تربطها بتقاليدها ومأثوراتها القديمة ، أما المؤرخ فانه ينظر الى التاريخ من خلال أحداثه الثابتة الملموسـة ، ويحب ألا يضرب فى أغوار النفس البشرية قدر ما يقف عند الحقائق المجردة الثابتة لا يحيد عنها ولا يتزحزح ، بل أنه أدعى الى انكار ما لم يجمع عليه الرواة ، وتثبته المدونات والوثائق .

ومن ينكر تلك الصلات النفسية التى تربط مصر القديمة بمصر الحديثة كما يقول أستاذنا « الدكتور هيكل » ، لا يعدو ظاهر الحقيقة : « فان الحقيقة العميقة التى تشعر بها أنت ويثبتها العلم هى أن بينك وبين أجدادك اتصالا وثيقا لا سبيل الى انـكاره ، وان جهله الناس وان جهلته أنت ، فهذا الدم الذى كان يجرى فى عروقهم يجرى فى عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التى كانت تدفعهم فى حياتهم هى التى تدفعك فى حياتك ، وأنت محكوم عليك طائعا أو كارها أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك اياه » .

ثم يبرهن الدكتور هيكل على ذلك فيقول :

« فاذا ذكـرت كذلك أن الوسط الطبيعى لم يتغير فى وادى النيل منذ آلاف السنين ، وان هذا الوسط الطبيعى هـو الذى

بصقل اللغات والنفوس ، وان الذين اغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالا فقدوا كل صفات أجناسهم القديمة ، وخضعوا لحكم الوسط الطبيعى ، وأصبحوا كأنما آباؤهم وأجدادهم فى مصر منذ عهد الفراعنة ــ اذا ذكرت هذا ــ أيقنت اذن أن بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالا نفسيا وثيقا ، وأنه من الواجب على المصريين أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال وأن خير ميادين البحث العلمى هى الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة » .

هذه الصلات النفسية التى تربط حاضر الشعوب بماضيها ليست الا شعورا جماعيا ، وما لم تكن وحدة الشعور النفسى قوية فى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم فما من رباط اجتماعى آخر يقوم مقامها ، وهذه الظاهرة البارزة من وحدة الشعور لدى المصريين هى التى قومت شخصيتهم التاريخية ، وربطت حاضرهم بماضيهم ، واكسبتهم تلك القدرة على الكفاح المتصل المستمر والصبر عليه ، وصانت تراثهم ومقدساتهم وأبقت على تقاليدهم حتى لكأنما الفلاح المصرى يعيش كما كان يعيش أجداده فى عصر الاهرام كما يقول الأستاذ « غربال » بالرغم من أن الريف المصرى ــ كما يقول ــ هو الذى كان « يتلقى موجات النازحين الغرباء ولكنه كان كذلك المفترس الذى لا يشبع لهؤلاء النازحين » .

واذا كان لوحدة الشعور من قوة فى تكوين الشخصية المصرية فان للأصالة الدينية فى الشعب المصرى من القوة والأثر فى تكوين شخصيته ما لوحدة الشعور من أثر ، ذلك أن المصريين كما يقول « هيرودوت » « أكثر شعوب العالم تدينا » .

وللدين من القوة والعمق فى نفوس المصريين ما تقوم آثارهم شاهدا عليه فمصر الفرعونية لاتراها فى غير المقبرة والمعبد ، ومصر المسيحية أو الاسلامية لا تراها الا من خلال الكنيسة أو المسجد والضريح ومصر الحديثة تمزج بين الدين والاشتراكية مزجا قويا لا تدركه الاشتراكية الماركسية .

وأول ما نطالعه من ملامح الشخصية المصرية وضوح طابعها الدينى ، فالمصريون ــ كما يقول « هيرودوت » ــ يخافون الخالق أكثر من أى شعب آخر ، لذلك كانت أعمالهم الدنيوية تنطوى على خشية الاله والأمل فى ثوابه ، واتصلت قواعد الأخلاق والسلوك لديهم بتعاليم الدين ووصاياه اتصالا وثيقا ، فالخير والشر والفضيلة والرذيلة وصلة الفرد بالمجتمع وصلته بالأسرة تخضع جميعا لناموس الدين ، وكل ماوصل الينا ــ كما يقول الدكتور « سليم حسن » ــ من النقوش والكتابات المصرية القديمة يكاد يكون معظمه دينيا أو له علاقة بالشعائر الدينية ،

ولا غرابة فى ذلك ــ كما يقول ــ اذ أن ما بقى لنا من تراث القوم قد عثر عليه فى المقابر أو المعابد لغرض دينى ، ولذلك لا نكون مغالين اذا قــررنا هنا أن كل كتابة أو نقش عثر عليه حتى الآن ، ولو كان فى ظاهره خاصا بالتاريخ أو الطب أو الاجتماع وضع فى الأصل لقصد دينى أو له مساس بالدين .

وما من ظاهــرة من ظواهر الحضارة المصرية الا وهى متأثره باندين ، فأرقى ما وصــل اليه المصريون من فنــون العمارة كان لغرض دينى ، فالبنــاء والنقش والتصــوير والنحت كانت تدور جميعا حول عقيدة البعث والخلود ، وعمليــة التحنيط ــ وهى عملية معقدة تمر بعدة أدوار من مراس الجسد تستمر كما يقــال اربعين يوما حتى يستوى الجسد فى لفائفه ــ كانت حــرزا من عوادى البلى لضمان البعث والنشور ، وزيادة فى التحرز كانت تنحت التماثيل للموتى ليحل فيها القرين « ألكا » اذا ما ضــل طريقه الى الجسد أو حل بالجسد عارض ما أو تلف مقصــود . وهذه الأناشيد الدينية التى تمثــل الذروة من آدابهم ، والتى حفلت بها مقابرهم ــ ما كان منقوشا منها على جدر أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة وعرفت « بمتون الأهرام » أو على جــدران أرماسهم ، أو مخطوطة على صفحات من البردى داخل توابيتهم ،

والتى تكون فى مجموعها فصول « كتاب الموتى » ــ قد وضعت جميعا لأغراض دينية ، فهى عون الميت فى آخرته حين يقف للحساب أمام « أوزير » فى عبوره لرحلة الخلود .

فالشعور الدينى اذن كان أعظم مقوم لشخصية المصريين ، وهو خير تفسير لأقبال المصريين على اعتناق الديانات السماوية : المسيحية ، ثم الاسلام ، ففكرة الوحدانية التى تقوم عليها ديانات السماء كانت ــ كما يقول الأستاذ « رويدر » ــ لب الديانة الفرعونية ،ولم تكن فكرة البعث والنشور فى الديانات السماوية غريبة على العقيدة الفرعونية ، لذلك كان التحول من الدين القديم الى الدين الجديد سهلا ميسورا ، بل ان اعتناق المصريين للمسيحية لم يخل من مزج المسيحية ــ كما يقول هارناسك ــ ببقايا معتقداتهم القديمة ، ولعل القدرة على هذا المزج هى التى أتاحت للمسيحية انتشارا واسعا بين المصريين ، فان هذه الديانة الجديدة لم تسلم من الخضوع للناموس الذى تخضع له جميع الملل والعقائد النازحة الى مصر لتكتسب اللون الذى يرضاه المصريون .

ويمكننا أن نقول ان المسيحية لم تحدث انقلابا كبيرا فى الطقوس الدينية للمصريين ، فعامل الثورة الذى يصاحب الانقلابات الفكرية لم يصحب ظهور المسيحية وانتشارها ، اذ لم ير الناس

فى المسيحية شيئا غير مألوف لديهم سوى اختلاف الاسماء لمسميات واحدة : فحلت العذراء محل ايزيس ، وحل الثالوث المقدس فى المسيحية وهو « الآب والابن والروح القدس » محل الثالوث المعروف فى الاسكندرية باسم « سيرابيس وايزيس وهربوكراتيس » ، وعند بقية المصريين الذين لم يتأثروا بالعقيدة البطلمية باسم « اوزيريس وايزيس وحورس » . وقساوسة المسيحية لايختلفون فى لباسهم عن كهان ايزيس ، وقدس المسيحيون الأشجار وهى عادة مسيحية قديمة فقالوا : ان اللبخ هو شجرة يسوع المقدسة ، وظل قساوسة المسيحية يجزون الشعر من وسط الرأس كما كان يفعل كهنة قدماء المصريين ، بل أن الصليب قد اختلط فى أذهان الشعب « بالعنخ » المصرى ، والعنخ هو رمز الحياة عند قدماء المصريين ، كانوا يرسمونه على جدر قبر الميت .

ولم يجد المصريون تغييرا كبيرا فى الصورة التى تصوروها للعالم الاخر ، فان بوابة العالم السفلى كما يتصورها المسيحيون هى تلك البوابة النارية للعالم السفلى عند قدماء المصريين ، وبقيت العادات المصرية فى المسيحية كما هى ، فاستمر المصريون يحنطون موتاهم ، وكانوا يوقدون الشموع بمقابرهم المظلمة ، فصاروا يوقدونها فى جميع الكنائس مظلمة أو منيرة ، وكان لهم عيد

الشموع فأصبحوا فى عيد الشعانين ـ وهو الأحد الذى يسبق أحد القيامة ـ يوقدون الشموع .

وهذه الطبيعة المصرية المتصوفة المؤمنة بالبعث والعالم الآخر والتى اعتنقت المسيحية ـ اذ كانت قواعد هذا الدين الجديد لا تختلف عما فى دياناتهم من أقانيم ونواميس ـ هى الطبيعة المصرية بعينها التى أقبلت على اعتناق الاسلام ، اذ رأت فيه دينا يتحدث عن العالم الآخر ، ويرسمه فى صورة براقة جذابة من جنات وأعناب وحور وولدان وخمر لذة للشاربين ، وهى الصورة التى تخيلوها للعالم الآخر حين حشدوا قبور موتاهم بشتى ألوان النعيم ، حتى يجد الميت فى العالم الآخر من النعيم ما يغنيه عن هذا العالم الفانى .

ولم يتخل المصريون عما درجوا عليه منذ أقدم العصور ، فما زالت الطقوس الجنازية فى مصر سواء لدى المسلمين أو المسيحيين قريبة الشبه من الطقوس الجنازية عند الفراعنة : فتشييع الجنازة والنواح ولطم الخدود وتجليل الوجه والأطراف بزرقة النيلة ، والمبيت فى المقابر واستمرار الحداد لأربعين يوما وزيارة الموتى فى المواسم والأعياد الدينية ، كلها عادات مصرية قديمة ، بل أن تلقين الموتى ساعة دفنهم يذكرنا بكتاب الموتى ووصاياه ، وتلك

الحفنة من التراب يضعها اللحاد فى عين الميت ، هى ماكان يضعه المحنطون من قطع الحجر البركانى فى عيون الموتى ، وبقيت العادة واختفى الأصل والسبب .

* * *

اعتنق المصريون المسيحية ثم الاسلام واختفظوا بغير قليل من تقاليدهم القديمة ، ولكن بقيت ملامح شخصيتهم ومقوماتها لا تتغير الا بقدر ، وبقيت مصر الفرعونية — كما يقول جوستاف لوبون — حية فى مصر المسيحية ومصر الاسلامية . ومن ثم كانت مصر العرب هى مصر الفراعنة .

اعتنق المصريون المسيحية ثم الاسلام فلم تتعرض هاتان الدياناتان لمقومات وجودهم ، ولا لتلك الرواسب الكامنة فى أعماقهم منذ القدم ، ولم يكن انكارهم لليهودية وتبرمهم بها الا لأن اليهودية نمت فى رحاب أعدائهم الهكسوس ولأن اليهود كانوا يمثلون فى نظر المصريين شعبا دخيلا نجسا .

لهذا طبع التدين حياة المصريين بطابع نافذ غلاب ، غلب على تقاليدهم وعاداتهم ومأثوراتهم وطبع شخصيتهم بطابع فذ فريد ، فبقيت الشخصية المصرية خالدة على الزمن لا يمس التطور من فطرتها وعواطفها قدر ما يمس من عقلها ، فالعقل يخضع لعملية دائبة من النمو ، ولكن العواطف القديمة المتأصلة فى النفس البشرية

تبقى حفيظة على أصولها مالم يجتحها تغير الوسط واختلاف البيئة وقد سلمت البيئة المصرية من عوامل التغير المفاجىء السريع ، وظل الوسط متجددا فى صورته الدائمة المتكررة يحيى بتجدده كل كوامن العـواطف المصرية المحـافظة ، ويبقى بتكراره عـلى مقومات الشخصية المصرية فتية قـوية كأن لم تخترمها أجيـال وأحقاب .

ولعل هذا هو السر فيما لاحظه « جوستاف لوبون » حين قال « ان مصر الفرعونية تعيش فى مصر العربية » فقد حافظت مصر العربية على تراثها الفرعونى ، فبقيت العادات والتقاليد والمأثورات لم تتغير وان تغيرت فى مظهرها ، فان هذا التغير لم يتناول جوهرها وأصولها كما تقدم . وليس غريبا أن تكون مصر الاسلامية خلاصة المزج بين العنصرين الفرعونى والعربى ، فاننا اذا اهملنا عامل القرابة بين العنصرين لا نستطيع أن نهمل عامل البيئة وتأثيرها ، فلا جدال فى أن البيئة المصرية قد تمثلت أمواج الهجرات العربية النازحة اليها وان الريف المصرى ــ كما يقول شفيق غربال ــ « كان المفترس النهم الذى لا يشبع لكل نازح غريب » ، فان غلبة البيئة تقضى فى النهاية على اصالة الجنس وقوة الوراثة فيما يتصل بغرائز الشعوب وعواطفها ، فالوراثة تحفظ للانسان تكوينه البيلوجى مالم يختلط

بدماء غريبة ، ولكن البيئة هى التى توجه غرائزه وانفعالاته وعواطفه لتستوى من خلالها شخصيته النامية المستقلة .

وقد خضعت البيئة المصرية لعوامل محددة هى التى جمعت المصريين فى نطاق متسق من وحدة الشعور ، وطبعتهم بتلك الاصالة الدينية التى غلبت على مأثوراتهم طوال أزمنة تاريخهم ، وقومت شخصيتهم فى هذين الاطارين الغالبين من وحدة الشعور والاصالة الدينية .

وعلى هدى هذين العاملين نستطيع ان نفسر كل مراحل التاريخ المصرى ، فهناك اجماع دائم على هدف وغاية وهناك اتساق فكرى يفسر طبيعة تلك الثورات التى كانت تهب بين يوم وليلة من أدنى الوادى الى أقصاه دون سابقة تنظيم أو اعداد واقربها ثورة ١٩١٩ ، فما هى الا ليلة حتى أصبح النهار على شعب ثائر أعزل يقابل الحراب الانجليزية بحماسه وقدرته ، وتلك الثورات من نضال الشعب المصرى وكفاحه المستمر فى عهود الاحتلال الاجنبى صورة صادقة لوحدة الهدف واتساق الغاية ، ففى عهد الاحتلال الرومانى الذى وسع مصر كما وسع كل بلدان العالم المعروف حينذاك بقى الشعب المصرى حفيظا على شخصيته دون بقاع العالم الرومانى جميعا وحين يعجز الشعب عن الثورة على ظلم

طغاته يثوب الى مقاومة سلبية كانت فى الحقيقة أبرز سمات الكفاح المصرى ضد الغزو والطغيان .

وتمثلت هذه السلبية فى عهود شتى كان الشعب يقبـل فيها حكم الدخيل وقد يخضع له ولكنه لايدين له أبدا بولاء .

ولعل هذه السلبية كانت أقوى ظاهرة فى تاريخ مصر بل أبرز سمة على فلسفة الشعب المصرى ونظرته للاشياء ، وأنها هى أيضا ميراث قديم من تاريخه الطويل ، ففى عهود الظلم والطغيان الرومانى لاذ المصرى بعقيدته وتقاليده غير آبه للصخب الذى يعج به ذلك العالم الهيلينى الجديد ، فعاش بمعزل عن الاغريق والرومان يبادلهم احتقـارا باحتقار وازدراء بازدراء وان كان لهـم الجاه والثراء والصولجان ، حتى كان دخول المسيحية وانتشارها بين المصريين فوجدوا فيها ملاذا لبعث قوميتهم وابراز شخصيتهم بعد أن غامت معالم الفرعونية واصابها الكلال والضمور ، وبقى الصراع محتدم الأوار بين روما الوثنيـة ومصر المسيحية وبين روما البوليفيزية أو الملكانية ومصر المونوفيزية أو اليعقوبية ، حتى كان فتح العرب لمصر وامتداد موجة الفتوح الاسلامية الباهرة الى أقطار العـالم القديم الذى تقاسمته روما وفارس .

* * *

وبدأت مرحلة جديدة من مراحل التاريخ فى مصر ، مرحلة
ومت حياتها مرة أخــرى على نهج جديد استردت مصر فيهـا
حيويتها وأصالتها وتفردها . فالشــخصية المصرية كان قد أصابها
وع من الوهن والكلال بعد أن ذهب ذلك العالم الفرعونى بكل
جلاله وبهائه واندثرت اللغة الفرعونية بلهجاتها وآدابها ونقوشها
و كادت ونشأت لغة جديدة خليط من الديموتيقية واليونانية لم
ستو لها اصالة تحميها بعد أن كتبها المصريون بالحروف اليونانية
انقطعت الصلة بين قديمها وحديثها ، ولعل حاجة اللغة القبطية
لى الأصالة والهجنة التى كانت أساسا لها قدمهدا لانتشار العربية
استعراب المصريين مسيحيين ومسلمين .

وكما أصابت الهجنة لغة المصريين كذلك أصابت ثقافتهم وان
قيت البيئة حفيظة على تقاليدها ومأثوراتها وعاداتها ومقـومات
شخصيتها وهى التى طبعت عرب الجزيرة بطابعها يوم نزحوا اليها
استقروا بها وان ســادت لغتهم وثقافتهم وان اعتنق المصريون
لدين الجديد الذى بشروا به .

وانطــوت مصر فى الاطار الاســلامى العام وغلبت الاخوة
لاسلامية على كل نزعة قومية أخرى سواء فى مصر أو بين الشعوب
لعربية والاسلامية الأخرى وأصبح الحكم مرتبطا بتلك النظرة

الجديدة حتى تقبل العرب راضين فى مصر وفى غير مصر حكم مسلمين أغراب من الترك والجركس والمماليك . ولم يجد المصريون فى ذلك افتئاتا على قوميتهم أو استقلالهم بل اعتبروا أنفسهم جزءا من العالم الاسلامى الفسيح الذى يدين للاسلام والخلافة الاسلامية بالولاء .

ويفسر لنا ذلك خطأ هذا الظن الذى يرى مصر وقد فقدت استقلالها طوال حكم الولاة ، وانها نالت استقلالها وحققته حين وليها حكام دفعهم الطموح الى الاستئثار بها ومد نفوذهم الى ما حواليها فان هؤلاء الحكام لم يواجهوا الجماهير بالخروج على الخلافة أو عصيانها وبقى اسم الخليفة يقترن باسم الحاكم فى الاعياد والمواسم وفى صلاة الجمع وينقش على السكة والنقود .

ولكن استقلال مصر حقيقة قد تمثل فى حفاظها على شخصيتها فقد كانت هناك هوة واسعة بين الحياة التى يحياها الحاكم والحياة التى يحياها الشعب فى القرية والمدينة ، ولم يأبه الشعب من الحاكم الا بعدله أو ظلمه ، وكان يشكوه أحيانا الى الخليفة اذا بغى .

ويفسر هذا موقف المصريين من الفرنسيين فقد ظل الفرنسيون فى مصر ثلاث سنوات يصلون نيران غضبهم ولعنتهم ويثور بهم المصريون فى كل قرية وفى كل مدينة ينزلون اليها ، لأنهم غرباء

على الدار وعلى الملة ، وكان هذا شأن المصريين طوال الاحتـلال البريطانى ، خاضوا ضد الانجليز معـارك وثورات حتى توجو كفاحهم بثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

وبقيت الحمية الدينية لدى المصريين أقوى ما يميز شخصيتهم فكانت وقفتهم ضد المغول والصليبيين وكان انتصار الاسلام على يد مصر .

وهذه الحمية الدينية التى تنبع من تأصل الوعى الدينى لدى المصريين هى التى حملتهم ضد الفاطميين فلم يرضوا بالمذهب السنى الذى عرفوا الاسلام عليه مذهب الفاطميين الشيعى فسرعان ما عادت مصر سنية بعد سقوط الدولة الفاطمية .

بل أن الازهر الذى قام فى رحاب التعاليم الشيعية غدا أعظم منارة لتعاليم السنة .

ولكن هل أحب المصريون حكامهم الغرباء ؟

وقد تبدو الاجابة عسيرة الا أن الظواهر كلها تدل على أن ولاء المصريين للحاكم كان مستمدا من ولاء الحاكم للخليفة وبقاء مصر فى نطاق الخلافة الاسلامية ، ولم يكن حبهم للحاكم الا بقدر ما كان عليه هذا الحاكم من عدل وسماحة وعمل لخير الرعية .

وفى اطار الولاء للخلافة تسنم محمد على أريكة مصر ، وكان

أولى بها مصريون من أمثال عمر مكرم الا أن صوتهم لدى السلطان كانت تحجبه قوة محمد على وجنده .

ولكن هذا الولاء كانت قد شابته عوامل عدة أضعفته وأن حجب هذا الضعف عوامل أخرى كانت قوة للخلافة .

فقد اغتصب العثمانيون الخلافة من العرب بزوال آخر خليفة عباسى ، وكان العرب قد اعتادوا حكم العناصر التركية فى شكل ولاة وقادة جند فمر هذا الانتقال هينا وان شابته مرارة اليمة ، ولكن الضعف الذى ألم بالعالم الاسلامى وبالعرب بنوع خاص ثم روح الفتوة التى دفعت العثمانيين الى رفع اعلام الاسلام على بقاع وقف من قبل دونها عاجزا قد أكبر من العثمانيين وسرعان ما دان العالم العـربى لهم بالولاء حتى استيقظ على مظالمهم فى منتصف القرن التاسع عشر وبدأت يقظة العرب مرة أخرى .

وفى مصر كانت مساخر الترك والارناؤود والجركس ومظالم الحكم تسوق المصريين الى الثورة التى قادها أحمد عرابى .

وكانت ثورة عرابى أول ظاهرة ليقظة المصريين واهتدائهم الى شخصيتهم الحقيقية وسط العالم العثمانى المتهاوى وتحت حكم تلك الطغمة من أوغاد الترك والجركس وأجلاب محمد على الذين أورثهم مصر .

وفشلت الثـــورة العرابية ولكنها ألقت بالبذرة الأولى التى أنبتت الشخصية المصرية المعاصرة .

ولكن بقيت هذه الشخصية المصرية تائهة بين الولاء لذاتها والولاء للخلافة والاسلام ، وكذلك كانت بقية البلاد العربية فى غير مصر أيضا .

الشخصية المصرية تهتدي إلى ذاتها

الشخصية المصرية تهتدى الى ذاتها

« ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القـوة الدافعة وراء محمد على . واذا كان هناك شبه اجماع على أن محمد على هو مؤسس الدولة الحديثة فى مصر فان المأساة فى هذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر الا بوصفها نقطة وثوب الى مطامعه .. ولقد ساق مصر وراءه الى مغامرات عميقة استهدفت مصالح مصر متجاهلة مصالح الشعب » .

« وكانت الاسرة المالكة الدخيلة تحكم بالمصلحة والهوى وتفرض المذلة والخنوع وكان الاقطاع يملك حقوله ويحتكر لنفسه خيراتها ولايترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجـاف المتخلف بعـد الحصاد » .

« وكانت بريطانيـا بالذات لا تحول انظارها عن مصر بحكم اهتمامها بالطريق الى الهند . ومن ثم ألقت بثقلها كله فى المعركة الثورية التى لاحت مقدماتها بين القوى الشعبية وبين أسرة محمد على الدخيلة المغامرة .. »

« وكانت ثورة عرابى هى قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة »

الميثاق

مامن

فترة غامت فيها الحقائق والتبست فيها المعانى كمـــا غامت والتبست فى تلك الفترة التى أعقبت فشل الثورة

المجتمع المصرى كما شهدته تلك الفترة .

وما من فترة يمكن أن نقول عنها أنها شهدت عمق التطور فى المجتمع المصرى كما شهدته تلك الفترة

ولم يكن التباس المعانى وما شاب الحقائق من غيوم الا دليل هذا التطور وعمقه لاسيما اذا صحب هذا التطور نوع من الثورة على القديم البالى حيث تبدأ المعركة بين القديم فى عمقه واصالته والجديد فى حيويته وانطلاقه فينقسم الرأى العام بين المحـــافظة والتجديد وغالبا ما يكون السواد الأعظم من الرأى العام فىصف المحافظة ولكن الايمان الذى يحدو موكب التجديد والشجاعةالتى يتسم به أصحابه تنتهى به الى الغلبة والنصر .

فهما كانت أصالة القديم فانها لا تصمد أبدا أمام عجلة التقدم والأنطلاق ذلك أن التقدم هو سنة الحياة والجمود ســـمة الموت والأمم الجامدة لا تقوى على الحياة فيدركها الفناء وتطوى فىعالم النسيان ، والاستجابة لسنة التطور والانطلاق دليل حيوية الأمم وقدرتها . وهو مادعاه المؤرخ « توينبى » بالاستجابة ، فالأمم

التى جمدت أمام التحدى الذى يقع عليها ــ أيا كان هذا التحدى ــ ولم تستجب له تطحنها عجلة التحدى فلا تبقى منها شيئا ، فتزول من صفحة التاريخ بفعل تلك العوامل القــاهرة كمــا بدت على صفحته من قبل بفعل عوامل قهرية أو طارئة .

ولقد برهنت مصر طوال تاريخها على قدرة فذة على الاستجابة وهــذا هو السر فى بقائها واستمرارها وتجــددها ، الا أنها فى استجابتها شأنها فى ذلك شأن الأمم العريقــة لا تخلو من حوافز المقاومة المرنة ، وهى ما تضفى على الاستجابة تلك الحيوية التى تتمثل فيها الجديد وتصهره فى قديمها ليكون النتاج قوة جديدة تدفع بها الى الأمام . وكلما اتسمت الاستجابة بالمقاومة المرنة كانت قوة الدفع أشد وأبقى على الأيام ، فاذا خلت الاستجابة من تلك المقاومة المرنة كانت استسلاما يهز كيان الأمة ويقطع ما ضــيها بحاضرها ، وغالبا ما تفقد مثل هــذه الأمم القــدرة على البقاء بالاستمرار شأنها فى ذلك شأن الأمم التى تجمد أمام التحدى ، والفرق بينهما أن الأمم التى تستجيب أقدر على الاستمرار من تلك التى تجمد أمام التحدى وان فقدت القدرة على التجدد والبقاء وهى سمة الأمة التى تقرن الاستجابة بالمقاومة المرنة .

لهذا كان كل تطور أو كل نزعة الى التجديد فى تاريخ مصر تلقى

غالبا مثل هذه المقاومة المرنة وهى مقاومة تتسم بالعقل والسكون والصبر والحرية فليس فى تاريخ مصر على طوله ما يشير الىهذا القمع أو الاضطهاد أو التنكيل الذى أصاب المفكرين ودعاة التجديد فى أمم أخرى . وانما هى تتأمل وتستوعب فى أناة وصبر وتترك لكل صاحب فكر أو عقيدة أو رسالة حريةالدعوة بلوحرية العمل اذا كان من أرباب الحكم ليستقيم لها الرأى فتتمثله وتعتنقه وتذود عنه ، أو تنبذه وتهجره وتجفوه ولا تعود اليه .

وقد تغيم الحقائق وتلتبس الأمور ، وغالبا ما تغيم وتلتبس ، فى تلك الأوقات التى تشهد نوعا من التطور أو دعوة الى التجديد بحكم ماركب فى طبيعة الأمة من قابلية للتأمل والاستيعاب وصبر على التمثيل ، فيصعب الحكم على الاشياء فى وقتها أو تبينالحقائق فى حينها ، وحينئذ تخطىء الأحكام وتتضارب على صفحة التاريخ لوقت قد يطول .

وهذا ما كان من أمر تلك الفترة التى اعقبت الثورة العرابية وسبقت الحرب العالمية الأولى فى تاريخ مصر ، وهو ما تناول سماته وملامحه البارزة مشروع الميثاق .

فهناك القداسة التى أضفتها الأخوة الاسلامية على الخلافة والخليفة حتى وأن بعدت الخلافة عن روح الدين وان بعد الخليفة

عن تفهم جوهر الحكم فى الشريعة الاسلامية هذا الجوهر الذى يقوم أصلا على فكرة الشورى والعدل .

وهناك هذا العالم العثمانى الذى ران بكلكله على العروبة والاسلام وحجز بينهما وبين التقدم والتطور .

وهناك التعصب الرجعى والشعوذة والخرافة تسود كل عقيدة وكل ايمان وتشوب تقاليد الأمة وأعرافها ومأثوراتها .

وهناك عزلة ضربت أطنابها على العالم العربى فحجزت بينه وبين الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة .

وهناك ضعف وخمول يطغيان على كل قدرة وتفتح .

وهناك سيوف مصلتة تنوش أطراف العالم العربى بعد أن انتهب الاستعمار البقاع النائية من عالم الاسلام فتقع الجزائر وتونس ومصر فى ربقة الاستعمار وتتلمظ الدول الاستعمارية لالتهام بقيته .

وفى مصر هناك الأزهر مازال يشع بخفقة من الضياء تصون التراث وتحمى الشريعة والسنة واللغة وتلفح أحيانا بحرارتها الخابية أوجه الطغيان الممثل فى الحاكم العثمانى والأمير المملوكى الجاهل .

وهناك الشخصية المصرية الأصيلة تبرز بأصالتها وسماتها

ومعالمها فى كل محنة ولا يعوقهـا عن الانطـلاق الا بعض الولاء للخلافة الاسـلامية التى تضفى قداستها الزائفة على الحـاكم والسلطان .

وهناك تلك القدرة من اللامبالاة بالحاكم الغريب مادام بعيدا عن تقاليـد الأمة وأهدافها ومأثوراتها ليتمتع بجاهه وسـلطانه وترفه فاذا عن لهأن يبتذل بعضا من تقاليد الأمة ومأثوراتها صفعته الصفعة التى لا يفيق منها .

الا أننا يجب أن نعود الى الوراء قليلا حتى نتبين كيف أتيح لتلك الشخصية المصرية أن تستيقظ وتبرز .

فقد جاءت الحملة الفرنسية الى مصر وقضت بمدافعها على مقاومة المماليك ، ولاذ المماليك يحتمون بالشعب .

وكانت الأمة المصرية الخالصة حينذاك كما كانت فى كل أدوار تاريخهـا جمـاعة الزراع الذين يفلحون الأرض وجماعة التجار بطبقتيها من المثرين واللاغبين ثم أصـحاب الحـرف والصناعات وأخيرا علماء الأزهر ، وكانت رعاية الدولة للدين الذى تحتمى وراءه وتحكم باسمه تضفى عليهم نوعا من النفوذ الذى لا يعدوه رجل الدين الى الجاه والسلطان فهو نفوذ لكبح عواطف الجماهير أو التعبير عن مطالبها لدى الحاكم أو حمل ظلاماتها اليه .

وهذه الأمة المصرية الخالصة هى التى نهضت لمقاومة الفرنسيين طوال السنوات الثلاث التى أقامها الفرنسيون فى مصر .

وكان قمينا بها أن تأخذ دورها الحقيقى على مسرح الأحداث كأداة للحكم الا أنها كانت ترى الحكم وقفا على الخليفة وولاته فكان كفاحها للتحرر من عنصر غريب جنسا وملة لىعود الحكم الى أربابه فى ظل الرابطة الاسلامية العامة .

وجاء محمد على فعاق عجلة التقدم الاجتماعى وحال بين الشخصية المصرية وبين الظهور والبروز وان نجح فى اقامة دولة حديثة من حيث التنظيم الادارى الا أنها احتفظت بكل معالم الاستبداد والطغيان العثمانى فكان الحاكم الفرد المطلق السلطان الذى لا تقف أمام مشيئته مشيئة الا نكل بها وقضى عليها .

وامتد هذا الطغيان الى المجتمع فسخر الفرد لطموحه ونزواته وأقطع البلاد أهله وجنده من الترك والجركس بل وأبناء المماليك الذين فتك بآبائهم فلم يكن يرى فى المصرى أو العربى الا خادما للعثمانى ، وشطحت به آماله الى اغتصاب الملك العثمانى وسخر لذلك أبناء مصر الذين اغتصبوا النصر لألويته فى كل معركة خاضها وان حرمهم من الرتب العسكرية الكبرى .

وظهر فى المجتمع المصرى ما يعرف « بالعثمانلى والجندى

والأغا والكلفة » وكانوا هم أصحاب الاقطاع الكبير من الوسايا والجفالك غير ما كان لأسرته من الدوائر والأملاك التى حرم منها المصريين .

ومنذ ذلك الوقت تكون ما يعرف بالأقطاع الزراعى الكبير الذى أطاحت به الثورة ، وقبع الفلاح المصرى وهو الغالبية التى يتكون منها سواد الشعب تحت وقر الرشوة التى وسمت أعمال الحاكم التركى والسخرة والكرباج وسيلتاه الى الحكم .

وتواتر ابناؤه وأحفاده على حكم مصر ولم يكن لهم ذكاء أبيهم وان كان لهم بطشه وسلطانه وخيم الجهل بعد أن أقفلت المدارس التى شادها محمد على لتسد حاجته الى بناء جهاز عصرى للدولة .

وخمدت الشخصية المصرية حتى كشفت عنها الحاجة وكشف عنها طموح الحاكم بعد ذلك فقد أصدر سعيد اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ لتفسح للمصريين مجال تملك الارض وحيازتها بعد ان عجزت الدولة وعجز « العثمانى والجندى والاغا والكلفة » عن استثمارها وزراعتها بالرغم من « الكرباج » . وان بقى سلطان « الغز » قائما والغز هم هؤلاء الاغراب الوافدين الذين يستبيحون لانفسهم خير مصر وثروتها وظهرت طبقة من صغار الملاك وكان ظهورها بدافع الحاجة اليها .

وجاء اسماعيل يطموح جده محمد على ولكن بغير أسلوبه فسخر المالية المصرية بدل السواعد المصرية لتحقيق هذا الطموح . وأراد أن تكون له سمات الحاكم الغربى المستنير فأنشأ مجلس شورى النواب عام ١٨٨٦ وقصر حق الانتخاب لعضويته على العمد والمشايخ وهم من صميم الطبقة المصرية فأتاح لها بذلك نوعا من التميز والظهور الشكلى ، الا أن هذه الطبقة التى ظهرت فى مجلس شورى النواب قد استطاعت أن تلعب دورا قويا فى تأييد الثورة العرابية .

وثمة عامل آخر كان له أثره الايجابى فى بروز الشخصية المصرية وظهورها ، فقد فتح سعيد باب الترقى امام المصريين فى الجيش الى رتب الضباط وفى عهده تدرج عرابى من نفر فى الجيش الى رتبة القائمقام (عقيد) عام ١٨٦٠ ثم جاء اسماعيل فأغفل ذلك ومن قبيله أن عرابى بقى فى رتبة القائمقام تسع عشرة سنة قبل أن يرقى الى رتبة الأميرالاى (العميد) فقد كان اسماعيل كأبناء جلدته وعلى شاكله أسرته يؤثر الجركس والاتراك على المصريين .

وعلى يد هذه الطائفة من العسكريين المصريين كانت الثورة المصرية الأولى أو « ثورة عرابى » ولولا الطمع الاستعمارى وغدر

الاحتلال لحققت الشخصية المصرية تكاملها بفوز تلك الثورة .

وجاء الاحتلال والمجتمع المصرى يمور بانفعالات شتى وتجتاحه عوامل عنيفة . فقد أخذ الفكر المصرى يتبلور ليشق مجراه الحقيقى وكان محمد عبده رائد هذا التفكير الجديد وداعيته .

وقبل أن تتبين دعوة محمد عبده علينا أن تتبين طبيعة الأفكار التى أخذت بوجدان المصريين وعقولهم فى تلك الفترة .

فقد كانت نظرة المصريين الى الاحتلال نظرتهم الى الفرنسيين من قبل تضاءلت الى جانب كراهيتهم له كراهيتهم « للعثمانلى والتركى والجندى » وكانت تلك هى النظرة الغالبة على كافة المصريين .

وتلك النظرة هى التى طبعت حركة مصطفى كامل فالاتجاه الى تركيا ودولة الخلافة والتعاون مع الدولة المناوئة للاحتلال وهى فرنسا هما الأساس الذى أقام عليه دعوته وكفاحه وسياسته الوطنية .

أما الخديو فقد كان له موقف جذب اليه الوطنيين فقد راح ينشد التمتع بسلطان الخديوية وينفس على المعتمد البريطانى الذى يمثل سلطة الاحتلال نفوذه وسلطانه . وظن أن يكون انتصار الحركة الوطنية انتصارا لأطماعه وتحقيقا لرغبته فى الانفراد بالحكم

اذا ما تحقق الجلاء فأخذ يتقرب اليها فى شخص زعيمها مصطفى كامل وينتصر لها .

وبهذا كان تحالف الحركة الوطنية مع فرنسا والخديوية امرا تمليه الضرورة .

ولهذا جاءت دعوة مصطفى كامل فى البداية وهى قاصرة على طلب الجلاء بل وارتضت العودة بوضع مصر الى الوضع الذى حققته اتفاقية لندن ١٨٤٠ ، وخلت من التعرض لنظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بين الخديوية والشعب ولم يرد ذكر الدستور فى كفاح الحركة الوطنية الا بعد وقوع الجفوة بين الخديو ومصطفى كامل أثر سياسة الوفاق .

وفى ذلك الوقت بدأ مصطفى كامل يغير سياسته فقد تخلت فرنسا عن نصرة القضية المصرية بعد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وهجر الخديو صفوف الوطنيين بعد أن رأى آماله فى الانفراد بالحكم لا تتحقق وان وفاقه مع الوكالة البريطانية يشبع نهمه انى السلطان الزائف وشهوة جمع المال التى استولت على مشاعره فأخذ يتاجر بالألقاب والنياشين ولم يعد أمام مصطفى كامل غير الشعب فاتجه اليه وألف الحزب الوطنى وتبنى الدعوة لنشر التعليم وكان انشاء مدارس الشعب لتحقيق تلك الغاية . الا أن

الموت لم يمهله حتى تتبلور سياسته الجديدة فى المجرى الذى يمكن أن تستقيم عليه لصالح الشعب .

وكانت هناك طائفتان من المصريين : طائفة الأعيان وطائفة المثقفين . أما طائفة الأعيان فهى طبقة مصرية صميمة تكونت من العصبيات الريفية التى أفسح لها مجلس شورى النواب مجال البروز ووجدت فى تصفية أملاك الدومين والدائرة السنية مجالا لحيازة الأرض وامتلاك مساحات واسعة منها وكان هذا بداية تكون الأقطاع الصغير فى مصر وندعوه بالأقطاع الصغير لأن الملكية الكبرى للأرض ما زالت فى يد الأسرة العلوية وأشياعها ، ووجدت هذه الطبقة المصرية الجديدة النامية كل عون من الاحتلال حتى يضرب بها طبقة « الذوات » التركية .

الا أن طبقة الأعيان قد أخذت تتمثل بالعناصر التركية وتصهر اليها بل منها من هجر زوجته المصرية ليتزوج عليها تركية أو جركسية مجلوبة ، ورحبت العناصر التركية بعد أن انتابها الوهن والضعف بتلك المصاهرات بينها وبين طبقة الأعيان وان بقيت تحمل لها الازدراء والامتهان القائم على الاعتزاز بالجنس والعنصر .

ولكن هذه الطبقة الجديدة النامية ما زالت تذكر قسوة الأتراك

ومظالمهم وتذكر أن العمد والمشايخ كانوا يجلدون اذا ما تأخـروا عن جمع المال وجباية العوائد وتذكر جيدا « القواس والفلقة » وتذكر ازدراء التركى «والعثمانلى» لها وتذكر أن ما نالها من خير وثراء كان بسبب الاحتلال فجفت الخـديوية التى تتمثل مظالم الترك وان لم تجف دولة الخلافة ورابطة الاسـلام ، ولكنها لم ترض بالاحتلال الا وقاء لها من ظلم الاتراك وراحت تنشد لونا من الحكم الدستورى الذى يمكنها من المشاركة فى الحكم ، فلم تتشيع لحركة مصطفى كامل بقدر ما تشيعت لمصالحها الحقيقية .

وأما طائفة المثقفين فهم فى الواقع أبناء تلك الطبقة الناميـة الجديدة من المصريين التى استطاعت أن تنفق على تعليم أبنائها فى المدارس المصرية وفى الخارج . وكان تفكيرها غربيا بمعنى أنها تأثرت بالنزعة القومية التى سادت أوربا فى القرن التاسع عشر كما تأثرت بالفلسفة والتمدين ونظام الحكم الغربى .

ولشد ما تأثر هؤلاء المثقفين باتجاهات الامام محمد عبده فى آخريات أيامه فقد أخذ الامام بعد فشل الثورة العرابية يدعو الى الاصلاح ونشر التعليم كما أخذ يدعو الى تقييد سلطة الخديو ولم يتعرض كثيرا للاحتلال ايمانا منه بأن الأمة التى تتعلم وتصلح من ذاتها لن تقبل احتـلالا جنبيا أو حكما جائرا . لذلك باء محمد

عبده بغضب الخديو حتى أن الخـديو غضب ممن شاركوا فى تشييع جنازته عندما واتته المنية عام ١٩٠٥ .

ومن صفوف هؤلاء المثقفين انبعثت دعوة الاصلاح والتجديد فمنهم كان قاسم أمين الذى نادى بحرية المرأة وعمـر لطفى الذى وضع أساس التعاون والجمعيات التعاونية فى مصر وطلعت حرب الذى نشر على صفحات الجريدة عام ١٩٠٧ دعوته الاقتصـادية وبلفظ أدق برنامجه الاقتصادى الذى قدر له أن يقوم على تنفيذه بعد ذلك بخمس عشرة سنة ومنهم كانت الدعـوة الى القوميـة المصرية وأن تكون مصر للمصريين الذى نادى بها لطفى السيد .

وتبنت هذه الطائفة من المثقفين الدعوة الى الاصـلاح ونشر التعليم وتعريبه واصلاحه والمطالبة بالدستور فجرت بذلك جرى الشيخ الامام محمد عبده حتى قيل انهم أتباعه وشيعته وحزبه .

وفشل الخديو فى جذب تلك الطائفة الى صفه فما زالت تذكر كذويها عنت الاتراك ومظالمهم وأن « آخر خدمة الغـز علقة » ، وكره الخديو منها دعوتها الى الدستور كما كره الاحتلال تلك الدعوة فندد بها كرومر بأنها عود الى الاستبداد الشرقى القديم الذى خلص الاحتلال منه مصر والمصريين .

ولم تجد تلك الطائفة خيرا فى الدولة العثمانيـة فقد عجزت

الدولة العثمانية عن الدفاع عن مصر ضد الانجليز وعجزت عن رد مظالم الخديوية بل لربما أفسحت فى ظلمها وكان مبعوثوها الى مصر مثالا سيئا للفساد والرشوة . كما كانت ترى — ولعل لطفى السيد كان طليعة هذا الرأى وصاحبه — أن النزعة القومية قد قضت فى تيارها على كل نزعة للرابطة الدينية وكان يعرف أن دعوة الجامعة الاسلامية ليست الا طلاء تختفى وراءه نزعة الخلافة العثمانية الى الطغيان والاستبداد فهو اتجاه لا يمت للدين بنسب وان اتخذ من الدين ستارا لضلاله ومفاسده وطغيانه .

ونادت هذه الطائفة بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية وعن الامبراطورية الانجليزية على حد سواء .

ومن الطريف أن لطفى السيد قد أخذ بدعوته تلك الى الاستقلال التام فاتهم بالخروج على الباب العالى وما يمكن أن يتطور اليه هذا الاتهام من نسبة الخيانة العظمى اليه ورد لطفى السيد بأنه لم يدع الى الاستقلال الكامل ودعا الى الاستقلال التام وهناك فرق بين الكمال والتمام بدليل قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » ويقول لطفى السيد انه ما أسف فى حياته كما أسف لهذا الرد .

ولا ريب أن مصطفى كامل لم يشأ أن يرى الى جانبه طائفة أو حزبا يدعو بغير دعوته فشن عليها الحرب منذ البداية وكان وراءه ولاء الجماهير وايمانها به ، ولم يطق الخديو أن يرى هو الآخر حزبا يدعو الى الدستور وتقييد سلطة الحكم فاصطنع الأنصهار لحزبه والحملة على الجريدة بل انه كان يرى أن الجريدة والحزب بدون لطفى السيد لا جدوى منهما بل ان الجريدة وحدها بدون لطفى السيد تصبح الخواء لا جدوى منها ولا قوة تسندها فأراد أن يجذبه الى صفه أو يبعده عنها فاصطنع حتى بعض أعضاء حزب الأمة للعمل على اقصائه عنها ففشل وبقى لطفى السيد يحمل الدعوة الى الاستقلال والدستور والاصلاح ، وبقيت الجريدة ومحررها لطفى السيد قذى فى عينيه فراح يشهر بها ويحيك لها الدسائس .

وبين تلك التيارات المتضاربة غامت الحقائق والتبست المعانى هذا الى أن الرأى العام كان يرى غاية كفاحه اجلاء الانجليز فحسب ، وأصبحت ألفاظ الاستقلال والقومية والوطنية تحمل مدلولات عديدة .

فالاستقلال فى رأى الوطنيين هو اجلاء الانجليز والعودة بوضع مصر الى معاهدة لندن ١٨٤٠ والاستقلال فى رأى لطفى السيد والجريدة هو أن تكون مصر للمصريين فحسب .

والاستقلال فى رأى الأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية هو تنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا على أســاس من الحكم الذاتى الذى يحقق لتلك الطائفة مجال المشراكة فى الحكم .

ولا ريب أن هذا الاتجاه الأخير ما كان يجرؤ على الجهر به مجترىء ولكنه أصبح الاتجاه الذى أخــذت به الزعامة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى وثورة المصريين عام ١٩١٩ .

والوطنية هى الأخرى قد غدت ولها معان متعددة فهل هى الولاء للوطن فحسب بمعنى أن يكون ولاء المصريين لمصر وحدها او هى الولاء للجامعة الاسلامية التى تتمثل فى الخلافة أو هــو الولاء للسيادة العثمانية وفقا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ .

والقومية أهى القومية الاسلامية التى تتمثل فى الدعوة الى الجامعة الاســلامية أم هى القوميــة المصرية التى شطت فنادت بالفرعونية أم هى الومية العــربية التى حمل دعوتهــا الكواكبى واضرابه فى الشام بمعنى أن العرب أولى من العثمانيين بالخلافة .

ولا يعنى هذا أن الشخصية المصرية قد فقدت روحها أو أن أصالتها قد انتابها الوهن والــكلال أو أنها تمزقت تحت ظروف وعوامل قاهرة طوال سنين امتدت قرونا لم يكن لها رأى مسموع فيما يتواتر عليها من ألوان الحكم وعــديد الحكام الغرباء ، بل

بقيت على أصالتها تختزن طاقاتها لما هو أجدى وأهم ، وحين أخذت تكشف عن نفسها كما قلنا بفعل قوى جديدة تاهت وسط هـذه التيارات فلم تعرف سبيلها الحقيقى ، وانما يغلب عليها شعور واحد هو الشعور الدينى فحسب يربطها بالولاء للرابطة الدينية العامة التى تتمثل فى الخلافة ودولة الاسلام خاصة وان قوى غريبـة تتكالب على دولة الاسلام وتنوشها من كل أطرافها ، بل ان احدى هذه القوى قد احتلت بلادها وحكمتها باسم الخديوية وبالرغم من بقاء السيادة الشرعية لدولة الخلافة عليها مما قوى هذا الولاء المشوب بالدين لدار الاسلام .

وجاءت الدعوة إلى الجامعة الاسلامية ورائدها جمال الدين الأفغانى وكان المحـور الذى تدور حوله دعوته تـكتل العالم الاسلامى ضد قوى الاستعمار الغربى الذى ينوشـه ، لتضاعف من هذا الولاء .

وبالرغم من هذا الولاء الذى يربط المصريين بدولة الخلافة وبدار الاسلام بقيت كراهيتهم للخديوية ولمظالم الترك ، تلك الكراهية التى نمت عنها ثورة عرابى ، وكان لاسـتقلال الخديوية بشئون مصر الداخليـة وهى أكثر ما تنعكس على الجمـاهير أن حملت الخديوية دون الخلافة أمام المصريين كل أوزار المظالم التى تقع

عليهم ، وباءت الخديوية وحدها بغضب المصريين ومقتهم على خلاف ما كان فى البلاد العربية الأخرى فى الشام والحجاز والعراق التى تتبع الخلافة رأسا ويليها حكام وولاة يعينهم الخليفة فباء الحاكم العثمانى بالمقت والكراهية ولكن بقيت الخلافة دون السلطان المتربع على عرش الخلافة تتمتع بالولاء واتجه الاصلاح فى تلك البلاد الى أداة الحكم المباشرة ونادى المصلحون بالحكم اللامركزى فى اطار الخلافة وهو نوع من الاستقلال الذاتى يتيح للبلاد ممارسة حكمها بنفسها داخل الاطار العام لدولة الخلافة .

وجاء الانقلاب الذى قام به رجال الاتحاد والترقى عام ١٩٠٨ ضد السلطان فقلب تلك القيم والمعايير الى حد ما ، ولكنه لم ينل كثيرا من جلال السلطان كخليفة للمسلمين فى نظر المسلمين وان نال من هيبته ونفوذه فى نظر رعاياه ، ولم يكن حكم رجال الاتحاد والترقى بالنسبة للعرب خيرا من حكم السلاطين ، فاذا ثار جند السلطان عليه وهم حماته وهو ولى نعمتهم فأولى بالعرب أن يثوروا بالسلطان وبالحكم فى دار الاسلام ويطالبوا بالاصلاح ويشتطوا فى دعوتهم ويتطلعوا الى دار أخرى للاسلام على رأسها خليفة عربى وكانت تلك دعوة « عبد الرحمن الكواكبى » .

أما فى مصر فقد كان لهذا الولاء اتجاه آخر كما قلنا فالمصريون

لا يبرمون بالخلافة بل لعلهم يرون فيها منقذا من الاحتلال البريطانى ولكنهم يبرمون بالخديوية ومظالم الترك ويذكرون « الفلقة والكرباج » ، بل لعل هذا الولاء هو الذى حدا بالترك الى ارسال حملتهم الفاشلة على قناة السويس عام ١٩١٥ أملا فى أن يثور المصريون على الاحتلال البريطانى ، ولكن هذا الولاء لم يكن من القوة ما يحمل المصريين على الثورة حينذاك ، ولعلها الطبيعة المصرية الأصيلة بما عرف عنها من سلبية هى التى قعدت بالمصريين دون القيام بعمل ايجابى ، فما دام الحاكم ــ أيا كان هذا الحاكم خليفة أو سلطانا أو خديوا ــ يقوم بالأمر وحده دون الشعب فليحمل وحده دون الشعب عبء العداوة بينه وبين أعدائه ، ولعل هذا ما يفسر أيضا موقف المصريين السلبى من معارك الحربين العالميتين الأولى والثانية فهم يعطفون على الألمان كراهية فى الانجليز ويتمنون أن ينتصر الألمان ، ولكنها أمنية لم تتعد نطاقها الى العمل الايجابى فما زال الألمان دعاة استعمار كالانجليز لا فرق بين الاثنين فى المطامع والأهداف فان الخصومة الناشئة بينهما مردها الطمع الاستعمارى والاستعلاء الأوربى .

وهذه السلبية هى بعض مقومات الشخصية المصرية فى مغالبة الظلم والطغيان .

الا أن الشخصية المصرية كانت قد بدأت تتبين أهدافها وتعلن عن نفسها حينذاك .

وكان لطفى السيد أول من رادها الى تبين أهدافها والاعلان عن نفسها .

لطفي السيد والشخصية المصرية

لطفى السيد والشخصية المصرية

« لقد سكت أحمد عرابى ، لكن صوت مصطفى
« كامل بدأ يجلجل فى آفاق مصر » .

« ومن عجب أن هذه الفترة التى ظن الاستعمار »
« والمتعاونون معه ، أنها فترة الخمود ، كانت من »
« أخصب الفترات فى تاريخ مصر بحثا فى أعماق »
« النفس وتجميعا لطاقات الانطلاق من جديد » .

« لقد ارتفع صوت محمد عبده فى هذه الفترة »
« ينادى بالاصلاح الدينى ، وارتفع صوت لطفى »
« السيد ينادى بأن تكون مصر للمصريين ، وارتفع »
« صوت قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة » .

الميثاق

لم يكن فى هذا الجيل من يستطيع أن يكشف عن الشخصية المصرية الأصيلة ويبرز سماتها وملامحها ويلمس أهدافها الحقيقيةغير لطفى السيد .

حقيقة أن شخصية الفرد أو الجماعة قد تتعرض لهزة أوهزات تتنابها فتصيبها بنوع من الانفصام ، يكون أثره من الشدة متوقفا على قوة هذه الشخصية وتماسكها ، فكلما كانت هذه الشخصية أكثر قوة وتماسكا كلما كان هذا الانفصام ضئيلا ، وكلما كانت متهاوية غير متماسكة كلما كان الانفصام عليها خطيرا حتى ليصيبها بالخلل والانهيار .

الا أن الشخصية المصرية قد برهنت طوال تاريخها على قوتها وتماسكها واصالتها فلم تصبها المحن والهزات بهذا الانفصـام الذى قضى على غيرها ، ذلك أنها نبت الأرض التى أورثتها صفاتها وملامحها ، فكلما ألمت بها محنـة لاذت بالأرض الطيبة تمنحها حنانها وحبها وفاءت الى خيرها وبرها . فالأرض هى الباقية ، هى الملاذ الخالد ، أما غيرها فعرض زائل ، أمره للدهر يبلوه أو يبتليه .

ولطفى السـيد نبت هذه الأرض الطيبة خلقا وخلقا ، فهـو الأسمر الفارع الصلب كجذع صفصافة عالية سامقة من صفصاف

النيل ، يحب الخيل والفروسية وهى بعض تراث الريف العريق ، فيهديه أبوه « مهرة » ـ كما يقول فى قصـــة حياته ـ وهو فى العــاشرة من عمره ، وكانت أجمل ما يهـــدى الى يافع فى ريف الدقهلية والشرقية ويمتد به حب الخيل والفروســـية معه طوال حياته ، وكثيرا ما كان يهجع الى الريف بعد اقامة تطول أو تقصر بالمدينة ليمارس هذه الرياضة النبيلة ، وحين سافر الى سويسرا كان يمارس رياضة المبارزة بالسيف .

وبقى خلق الريف الأصيل أكثر ما يميز لطفى السيد فى حياته فهو ابن القرية الذى نشأ « فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها الا الوطن المصرى ولا تعتز الا بالمصرية ولا تنتمى الا الى مصر ، ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور .. وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد » .

وبقى اعتزازه بمصر هو الشـــعلة التى تضىء فكره وتدفـــع سلوكه طوال حياته ـ أمد الله فى عمره ليرى ثمرة كفاحه فى بناء هذا الجيل ، وهو استاذه ومعلمه ، وارفة الظلال ـ وهو المصرى القح الذى راد الطريق أمام المصريين ليتعرفوا على حقيقة ذاتهم وسط هذه المتاهات الفكرية والاجتماعية التى سادت فى شبابه .

ولعل تلك التيارات الفكرية المتناقضة هى التى حملت لطفى

السيد على استهدائها وتعرف حقيقتها من وجوده ذاك ومن نسبته الى وطن راد الحضار مرتين : حضارة الفراعنة وحضارة العرب وكان له فى كليهما الصدارة والسبق .

فالتناقض الفكرى أدعى الى التأمل والاستيعاب ثم الوعى والادراك والوصول الى الحقيقة البلجاء .

فالذين يدعون بدعوة الجامعة الاسلامية ـ * قد فاتهم أن عهد الدولة الدينية قد ولى وانتهى بانتهاء سلطان الكنيسة على الامبراطور فى أوربا ، أما فى الشرق فلم تكن الخلافة امامة دينية كالبابوية بقدر ما كانت حكما دنيويا كالامبراطورية فى أوربا ، فالسلطان أو الخليفة فى الشرق لم يكن يتلقى البركة من سلطة دينية عليا كما يتلقاها الامبراطور عن البابا ، وما اكتسبت الخلافة قداستها الا من رباط الأخوة الاسلامية وهو رباط دنيوى يقوم على التضامن والتكافل وهو ما نادى به « الافغانى » ، ثم

---

* كان جمال الدين الافغانى يدعو الى الوحدة الاسلامية حتى تستطيع الشعوب الاسلامية ان تقف فى وجه الغرب المستعمر وكان يقول ان قوة المسلمين يجب ان تقوم على عناصر القوة التى جعلت الغرب قويا والشرق متخلفا وهى الاخذ بأسباب الحضارة الغربية بالتعليم والتصنيع ، ثم تبنى السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الاسلامية ليتخذها مطية لاغراضه السياسية فخرج بها عن اطارها الحكيم الذى اراده الافغانى وفسدت الفكرة على يديه ـ وكان الافغانى قد انتقل الى جوار ربه ـ فسارت الجامعة الاسلامية فى الاطار الذى اراده لها عبد الحميد وهو ما عارضه لطفى السيد وحارب اتجاهه .

أن الخلافة قد فقدت معناها بعد أن أصبحت ملكا عضودا على يد الأمويين ومن جاء بعدهم ولم تعد البيعة بما تحمل من معنى الشورى ، غير مراسم شكلية تقوم على القوة والغصب للاسرة الحاكمة وقد غلب على الخلافة بعد أن ضعفت عناصر غريبة من ترك وكرد حتى آلت أخيرا الى العثمانيين فأخذت شكل الدولة الدينية وأصبح من ألقاب الخليفة ألقاب تجمع بين الدين والدنيا « كسلطان البرين وخاقان البحرين وحامى الحرمين »

ولم تكن فكرة الجامعة الاسلامية مما يروق — فى نظر لطفى السيد — «للمشتغلين بالسياسة» أو من ينظرون «الى الأمور العامة بشيء من التدقيق » فانها « لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث ، فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الاوربية على شيء يضر بمصلحة مصر ، أو يبعد ميعاد أستقلالها ، أو يفيد استمرار الاحتلال الى الأبد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التى استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة اسلامية ، وان اوربا لاتساعد فى الشرق الا الأمم المسيحية ، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة ، كما فى أوربا ، هذه الوحدة التى يتخيلون وجودها ، وأنها كانت الحامل لأوربا على التداخل فى أمر ولايات البلقان وأرمينية ، نقول

ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد فى اللغــة كلمة جامعة مســيحية «بانيكريستيانزم» كما خلقت كلمة جامعة اسلامية «بانيسلامزم»

«على أن عقلاء المصريين لايرون لكلتيهما وجودا فى العالم ، ولكن السياسة تخلق ماتشاء .. فليس لأوربا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدى الى اعتداء من جهــة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الاوربيين ، بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الاوربية فى الشرق »

ويمضى لطفى السيد فيرى أنه لا وجود للجامعة الاسلامية وأنها ليست هدفا يسعى المسلمون لتحقيقه ، ومن المستحيل تحقيق هذا الغرض على من يقصد اليه . ويبرر ذلك بأنه « لاشىء يجمع بين الناس الا المنافع ، فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة فى الجنسية ، أو وحدة فى الدين »

ثم يحمل على كرومر لأنه جسم هذا الأمر وحمله على محمل التعصب للدين وهو يرمى الى « بعث القلق الى نفوس السياسيين من الاوربيين حتى لقد جره ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامى »

فالجامعة الاسلامية فى نظر لطفى السيد لا وجود لها ولا يمكن

نها أن تقوم حتى لو حاول البعض اقامتها ، وليست غير اتهــام يســوقه المحتل ليبرر وجوده بمصر لحماية الاقليات من تعصب المسلمين فهى وسيلة ابتدعهاالاحتلال ليعزز بها وجوده وبقاءه بمصر لذلك كان مقاله التالى عن دحض هذه الفرية التىيلصقها الاحتلال بالمصريين حتى لا تكون له حجة فيما يدعى ، ولقد بقيت انجلترا تبرر وجودها بهذا حتى كانت « حماية ا»قليات » احدى التحفظات الأربعة فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

ويقرر لطفى السيد فى حديثه عنالجامعة الاسلامية مبدأ قوميا هاما وهو أن المنفعة وحدها هى التى تجمع بين الناس ومعنىذلك أن المنفعة هى الدعامة الأساسية لفكرة القومية ، وأن التماســك القومى مصدره المنفعة ، وكلما زادت المنفعة أو بدت دواعيهــا برزت فكرة الوحدة والتضامن القومى ، مما يؤيده الواقع الحاضر فالولايات المتحدة الأمريكية قد ربطتالمنفعة بينولاياتها الخمسين والسوقالأوربية المشتركةتربط دولها برباط من المنفعةالاقتصادية وقد تطورت الفكرة القومية الضئيلة المرتبطة برقعة وطن محدود بدافع المنفعة لتجمع شعوبا عديدةفىاطار قومىواحد مادامتالمنفعة المشتركة رائدها جميعا ، فاتسع بذلك مفهوم القومية فى النصف الثانى من القرن العشرين عما كان عليه فى القرن التاســع عشر

والنصف الأول من القرن العشرين حيث سادت القوميات الشعوبية التي دفعت أوربا مرتين الى حرب مدمرة عامة فى مدى نصف قرن من الزمن .

ولعل لطفي السيد قد تأثر فى ذلك بمذهب «جون ستيوارت مل» فأخذ به ورأى أنه يتحقق فى دعوته « مصر للمصريين »

بل أن المعنى اللفظى لعبارة « مصر للمصريين » هى أن يكون كل خير مصر وبرها لأبنائها وأن يكون حكمها لهم وحدهم فليس لعثمانى أو انجليزى أن يحكمها وليس لأسرة غريبة عليها أن يكون لها ولاء على أبنائها .

الا أن فكرة الجامعة الاسلامية كانت قد رادت فى الحقيقة أدمغة كثيرة من المصلحين الاسلاميين قبل ذلك وكانت مظهرا من مظاهر اليقظة الاسلامية حينذاك ، ولكن هؤلاء المصلحين لم يكونوا أصحاب هذه التسمية أو مبدعيها ، فهى مصطلح غربى أطلق على حركة التضامن الاسلامى التى نادى بها الافغانى وقصده منها أن يستيقظ عالم الاسلام ويلم شمله لمواجهة الاستعمار الغربى بأسلحته التى يرود بها الشرق ويستعمره ، اسلحة العلم والحضارة والقضاء على الأوضار والمفاسد التى أضعفت الشرق ومكنت أوربا منه ، ولم تكن حركة ضد المسيحية أو ضد العالم المسيحى ، ولكن

الغرب فسرها بذلك حتى يضعف من شوكتها وتلقفها الانجليز ليبرروا بها وجودهم فى مصر أمام الدول الاوربية فاستمروا يدعون حماية الأقليات والجاليات الاجنبية .

وحين تبنى السلطان عبد الحميد تلك الدعوة كان يقصد تقوية مركزه أمام الاستعمار الاوربى الطامع فى أملاكه كما كان يقصد من ناحية أخرى تقوية مركزه كخليفة للمسلمين فى نظر العالم الاسلامى .

أما لطفى السيد فلم يجد فى هذا الاتجاه الا أنه أساء لمصر أكثر مما أفادها واقل ما أساء لمصر ما ينسب اليها من تعصب يبرر فى نظر الاوربيين بقاء الاحتلال البريطانى ، فأنكره وحمل عليه .

أما الرابطة العثمانية وارتباط مصر بتركيا فقد تناوله لطفى السيد تناولا يبين عن اتجاهه الى الاخذ بمذهب المنفعة أيضا فضلا عما يعرفه من استبداد الترك ـ سواء كانوا حكاما أو اتباعا ـ بالمصريين استبدادا تنم عنه تلك الصورة الكريهة التى بقيت عالقة فى ذهنه من أيام صباه ، وانه ليذكر « أن الضرب فى ذلك الزمان كان مباحا ، حتى ضرب العمد والأعيان ، وكان هذا بعض مايحدث فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد .. وقد رأيته بنفسى غير مرة ، اذ كان لوالدى صديق يدعى أحمد كامل بك ، وكان مفتش

« تفتيش شاوى » . فكنت — وانا تلميذ بمدرسة المنصورة — اذهب الى بيته يوم الجمعة . فأرى حوش التفتيش مرشوشا ، والبيك المفتش قاعدا فى صدره وقد وقف اثنان من « القواسة » يحملان « الكرباج » و « الفلقة » لضرب العمد الذين يتأخر أهالى قراهم فى دفع الايجار ، وكانت هذه طريقتهم فى ذلك الحين»

ولعل تلك الصورة الكريهة للحكم « التركى الخديوى » هى التى جعلت لطفى السيد لا يأتلف طوال حياته مع الخديو عباس رغم سعى الخديو اليه أكثر من مرة ، ففى بداية حياته العملية بعد أن أتم دراسة الحقوق عام ١٨٩٤ وحصل على الليسانس عين بالنيابة وكان يعمل بها صديقه ورفيق صباه وشبابه وجهاده الوطنى عبد العزيز فهمى ، وكانا يفكران « فى حالة مصر وما تعانيه من الاحتلال البريطانى» فأنشآ جمعية سرية غرضها « تحرير مصر »

« وكانت هذه الجمعية مؤلفة من : عبد العزيز فهمى وأحمد طلعت رئيس النيابة (أحمد طلعت باشا فيما بعد) وحامد رضوان وكيل النيابة ، ومحمد بدر الدين وكيل النيابة ، والدكتور عبد الحليم حلمى ، وأنا .. ثم ضممنا اليها على بهجت بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا . »

« وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ،فالتقيت

بمصطفى كامل ، فقال لى — ان الخديو عباس يعلم كل شىء عن جمعيتكم السرية واغراضــها . وأظن أنه لا تنافى بينهــا وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو — فأجبته — لا مانع عندى من ذلك — وأبلغ مصطفى الخديو هذا القبول واستأذن لى فى مقابلة سموه ، وذهبت اليه ، فتحدث معى عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه ، وطلب منى أن أســـــافر الى سويسرا لكى اكتسب الجنسية الســويسرية ثم أعود الى مصر لأحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المنال »

ويذكر لطفى السيد بعد ذلك كيف الف مع مصطفى كامل ومحمد فريد وآخرين الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ومن طرائفه مايذكره عن هذا الحزب « أن الخديو كان اســمه بيننا « الشيخ » ومصطفى كامل « ابو الفداء » وأنا «أبو مسلم»

ثم يذكر كيف سافر الى جنيف فاتصل بمن فيها من المستشرقين والمهتمين بالشئون السياسية من مصريين وأجانب ومنهم الشيخ محمد عبده الذى رافقه خلال اقامته هناك وكان يتردد معه على جامعة جنيف لحضور بعض الدراسات الفلسفية والأدبية

وفى سويسرا قال له الاستاذ نافيل :

« لا تظن أن أوربا تساعدكم على انجلترا ، وأرى أن لايحرر مصر الا المصريون » وكانت تلك أول انطباعة من الانطباعات التى قرت فى ذهن لطفى السيد فسار على هديها فى كفاحه السياسى بعد ذلك .

وغضب منه الخديو عباس لاتصاله بالشيخ محمد عبده ، فلما رجع الى مصر كتب الى الخديو تقريرا ضافيا يفصح عن اتجاهاته الفكرية والسياسية الجديدة يقول فيه : « أن مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها وان المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس الخديو حركة شاملة للتعليم العام »

ويبرز تأثير الشيخ محمد عبده فى هذا الاتجاه الجديد الذى رأى فيه لطفى السيد ان التعليم هو الدعامة الأولى للاستقلال فقد كان الشيخ محمد عبده يرى أن أول جهد يبذله المصريون للفوز بالاستقلال هو العمل على نشر التعليم واصلاحه حتى يقوى المصريون على حمل أعباء الكفاح الوطنى فى وعى وادراك لتبعات الاستقلال ومعناه الحقيقى فلا يكون التحرر من الاحتلال البريطانى للوقوع فى مظالم الترك واستبداد الخديو .

واكتمل تفكير لطفى السيد السياسى والقومى حين فكر فى اصدار « الجريدة » ، والأسباب المباشرة التى أدت الى اصدارها

دليل هذا النضوج والاكتمال فى تفكيره والاقتناع به . ففى ذلك الوقت تجددت مشــكلة « العقبة » بين مصر وتركيـا « وكان الاتراك يدعون أنها لهم والانجليز يقولون أنها ملك لمصر ، وكانت الصحافة الوطنية تنصر الاتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما كانت الحال فى مسألة « فاشودة » فأن المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الانجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر ، وهذا المعنى لا يمكن تفسيره الا بأن البلاد ثقل عليهـا الاحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر »

وما من شك فى أن لطفى السيد كان يدرك أن مصر لم تفد شيئا عن صلتها بتركيا ولا من العلاقة الشرعية التى تربطها بالدولة العثمانية التى نظمتها معاهدة لندن عام ١٨٤٠ . والتى ارتكز عليها مصطفى كامل فى المطالبة بجلاء الانجليز عن مصر ، ولا ريب أنه يذكر كما يذكر التاريخ الحق أن تركيا قد تركت مصر فريسـة للاحتلال البريطانى وأن الخديوية قد تآمرت مع المحتل ضـــد عرابى وأن الدولة العثمانية قد وقفت تنصر الخديو على عرابى وتركت الباب مفتوحا للمحتلين الانجليز ، ومعنى ذلك أن تركيا قد شاركت الخديو خيانته ومالأت العدوان البريطانى على مصر .

واذن فلا حاجة بمصر الى تركيا ولا أمل لها فيها فكيف تترك لها بقعة من أرضنا لتغتالها وتقتطعها من جسم مصر .

ولكن هاهى الصحف الوطنية تنتصر لتركيا وها هو الخديو يسلم دون أن يفصح باقتطاع جزء من مصر وضمه الى الاملاك العثمانية الأخرى ، ومهما قيل من أن الاحتلال قد ثقل على مصر فكرهته وكرهت معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر ، فان هذا لايبرر أن تخون مصر قضيتها فتترك للغير انتهاب أراضيها .

وقد حدثت هذه المشكلة التى عرفت بمشكلة العقبة وحدود مصر الشرقية ، أول ما حدث عند تولية الخديو عباس الثانى عندما أرادت تركيا ان تنص فى فرمان التولية على اعتبار أن قناة السويس هى حد مصر الشرقى زعما بأن سيناء تتبع ولاية الحجاز .

ومن الطبيعى أن يعترض الانجليز على هذا الوضع لا حبا فى مصر ولكن حبا فى مصلحتهم التى تقتضى حماية طريقهم الى الهند عبر قناة السويس من أن تكون تحت التهديد المباشر لاية قوة عربية اذا ما اقتطعت سيناء — وهى الخط الأمامى للدفاع عن قناة السويس — من مصر وضمت الى الحجاز أو غير الحجاز من أملاك تركيا المجاورة .

وتجددت المشكلة عندما فكرت تركيا فى مد خط حديد الحجاز

فأرادت الاستيلاء على سيناء أو بعض أجزائها حتى تكفل للخط الحديدى نوعا من الامن الاستراتيجى فضلا عن سيطرتها على طرق الاقتراب الاستراتيجية الى وادى النيل ، واحتلت لذلك موقع طابه الى الغرب من العقبة بثمانية أميال عام ١٩٠٦ .

وانتهت مشكلة العقبة بتراجع تركيا عن موقفها وأخيرا تم الاتفاق على أن تمتد حدود مصر الشرقية من رفح على البحر المتوسط الى نقطة تقع غرب العقبة بثلاثة أميال ، وبقيت طابه ضمن الاراضى المصرية والعقبة من أملاك تركيا .

وفى هذه المشكلة لم يكن هناك من يتكلم عن حق مصر فى سيناء غير الانجليز ، فهل تقوم الرابطة العثمانية عند المصريين الى حد التفريط فى حقوق مصر وهل تقضى هذه الرابطة العثمانية على كل نزعة قومية أو تفكير وطنى فى نفوس المصريين .

لقد كانت دار الاسلام دارا واحدة يوم كانت الدولة تنهض بالدفاع عن دار الاسلام وحمايتها . أما والدولة قد انتهت الى هذا الضعف الذى يطمع الدول الاوربية فيها ، وانتهت الى فساد ضاعت معه حقوق الرعية واستبد الحاكم فيها بالمحكومين ، فلم يعد على الأمة الا أن تنهض لحماية نفسها ولرد العدوان الذى يقع عليها والتخلص من المظالم التى تحيط بها .

واذا كانت الصحافة الوطنية قد انساقت فى الاتصار لتركيا الى حد التفريط فى حقوق مصر ، فليس على الواعين من أبناء مصر الا أن ينهضوا للدفاع عن حقها وتبصير الناس بهذا الحق وأخذه بأنفسهم .

وثمة حقيقة أخرى وهى أن الأمل الذى كانت مصر تعقدهعلى فرنسا فى مساعدتها على « زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا الذى عقد فى ابريل سنة١٩٠٤ وكانت السياسة الفرنسية قبل هذا الاتفاق ترمى الى مناوأة السياسة الانجليزية فى مصر بعد أن فازت انجلترا دونها باحتلال وادى النيل ، وكانت فرنسا تعانى فى ذلك الحين مصاعب فى مراكش وخشيت أن يؤدى فشل ادارتها هناك الى تدخل الدول وبخاصة انجلترا واسبانيا . »

« ولكن اسبانيا كانت مشغولة بمتاعبها فى المنطقة الأسبانية وكانت انجلترا هى الدولة التى يخشى منها . ولهذا أرادت فرنسا أن تحصل على حيادها ، وكان الثمن الطبيعى لذلك أن تحصل انجلترا على حياد فرنسا فى شئون مصر ، فعقدت الدولتان هذا الاتفاق . وأهم ما نص عليه :

« ان تعترف الحكومة الانجليزية أنها لا ترغب فى تغيير نظام

مصر السياسى ، وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها أنهـا لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء أو بأية طريقة أخرى »

« وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى لمصر وتركت لانجلترا حرية اكثر مما كان لها فى الشئون المصرية ، وكان من نتيجة ذلك أن انهار امل المصريين فى فرنسا ، وتحققوا أنه لايمكن الاعتماد عليها ، ولا على أية دولة فى المسألة المصرية ، وان على مصر أن تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال »

وصدق ما سمعه لطفى السيد من الاستاذ نافيل فى جنيف عام ١٨٩٧ من أنه لن « يحرر مصر الا المصريون »

اذن لا فرنسا ولا الدولة العثمانية قد نفعا مصر . بل ان كلتيهما كانتا وبالا على الحركة الوطنية ، ففرنسا قد أضاعت على المصريين سنوات من الكفاح كان من الممكن أن تتجه الى طريق أجدى ، وحين عقدت الاتفاق الودى التزمت بأن لا تثير المتاعب لبريطانيا وانفردت بريطانيا بوادى النيل .

ثم ما هى الدوافع التى تحمل فرنسا على الانتصار لمصر والمسألة المصرية ؟

والاجابة على هذا السؤال يسيرة لا ينكرها الواقع والتاريخ

فان فرنسا كانت تطمع فى احتلال مصر دون انجلترا وكانت السابقة الى الاعتداء على مصر واحتلالها . ومصر بين انجلترا وفرنسا كالمستجير من الرمضاء بالنار . وفرنسا بدورها دولة استعمارية وسياستها الاستعمارية أشد وقرا وعنفا من سياسة انجلترا الاستعمارية ، وهى دولة معتدية سطت على الجزائر قبل أن تسطو انجلترا على مصر بنيف وخمسين عاما وسطت على تونس قبل عدوان انجلترا على مصر بعام واحد .

وثالثة الأثافى كان اعتماد الحركة الوطنية على الخديو ، فليس الخديو الا حاكما شرقيا مستبدا ينقم على الاحتلال البريطانى أنه اغتصب سلطته ونفوذه ، وأبوه من استعان بالانجليز فى القضاء على الحركة الوطنية التى تزعمها عرابى ، ودخل القاهرة فى حمى الحراب الانجليزية ، فاذا كان ابنه قد اتخذ سبيلا آخر شذ فيه عما كان من استسلام أبيه للاحتلال فلانه رأى أن الاحتلال قد غصبه سلطانه وانفرد دونه بالحكم والسلطان .

فاذا اتيح للحركة الوطنية ان تنجح وتظفر بجلاء الانجليز فلا ريب فى أن يستعيد السلطان والحكم ويستمتع بالاستبداد ويعيد سيرة آله فى اتخاذ مصر ضيعة له ولذويه .

لذلك سرعان ما انقلب هذا الخديو على الحركة الوطنية عندما

آدرك انها عاجزة عن اجلاء الانجليز وأنها تتجه الى المطالبة بالدستور .

فالدستور لاشك سيحرمه ما ينشد من حكم وسلطان ويقف حائلا دون استبداده وطغيانه .

والانجليز لا يرضون عن تلك الحركة الدستورية الجديدة ويتفق الخديو معهم فى النقمة على الدستور والمطالبين به .

وكان الخديو عباس شرها تواقا الى جمع المال واكتنازه وله فى ذلك حكايات مشهورة منها أنه لجأ الى بيع الرتب والنياشين الى من يتطلعون الى الأبهة والجاه ، ومنها انه يتخذ شتى الوسائل لاغتصاب الارض وضمها الى حيازته بل انه لا يتورع عن قبول الرشوة والسمسرة كما حدث حين حمل ديوان الاوقاف على ابتياع تفتيش المطاعنة من أصحابه بثمن مضاعف مقابل رشوة قدرها ستون الفا من الجنيهات حصل عليها مما حمل المعتمد البريطانى على تحويل ديوان الاوقاف الى نظارة حتى يقضى عن مثل هذا التلاعب والفساد .

ولم ير الخديو فائدة من تعضيد الحركة الوطنية فقطع صلته بها ووجد من السير الدن جورست المعتمد البريطانى الجديدالذى خلف كرومر ميلا الى مهادنته ومن هنا بدأت سياسة الوفاق بين

الوكالة البريطانية والقصر وانقلب الخديو نارا على الوطنيين .

وبذلك فقدت الحركة الوطنية كل الدعائم التى استندت اليها .
فتركيا عاجزة وهى سبب النكبة التى حلت بمصر .

وفرنسا عقدت الاتفاق الودى وجفت أطماعها فى وادى النيل .

والخديو قد استجاب الى الوكالة البريطانية وجرى فى سياسة الوفاق معها .

وكان لطفى السيد يسمى الوكالة البريطانية السلطة الفعلية كناية عن استئثارها بالسلطة ، ويسمى القصر بالسلطة الشرعية كناية عن حقه الموروث فى الحكم وهو أول من ابتدع لهما هذين الأسمين .

وبين السلطتين الفعلية والشرعية ضاعت حقوق مصر .
لذلك كانت سياسة لطفى السيد أن ينبه المصريين الى ضرورة الاعتماد على أنفسهم ولم يكن امامه الا ان يطرق باب الدعوة الى ذلك عن طريق الصحافة التى يهواها .

وكان التفكير فى اصدار جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد .

وتصور افتتاحية العدد الأول من الجريدة تلك الاغراض التى قامت من أجلها جاء فيها ما يلى :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ومراميها ارشاد الأمة الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الأخذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والأمة بتبيين ما هو خير وأولى ، تنقد أعمال الافراد واعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والأفراد فى اشخاصهم وأعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم ، وهو : لا يكون من أهل الوطن الواحد أمة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وأن أظهر المشابهات فى حالة الأمة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الأفراد وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

« والناس بطبائعهم أشتات فى الرأى ، كما قيل : « للناس عدد رءوسهم آراء » وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ، ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الأمور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما ، هو غير الأول ، وان لهذا الوجود العام كمالا يجب أن يرقى اليه بعض الأفراد .. الخ »

فاذا أمعنا النظر فيما جاء بهذه الافتتاحية فاننا نرى اول عبارة فيها هى ابراز صفة الجريدة ونسبتها وهى أنها صحيفة مصرية . فقد كانت هناك صحف تشايع الاحتلال والمحتلين كصحيفة « المقطم » وصحف أخرى تتشيع للخديو « كالمؤيد » وثالثة تنطق بلسان الحركة الوطنية « كاللواء » ولكنها تسير فى الاطار الذى رسم حدوده مصطفى كامل للدعوة الوطنية بالاعتماد على الدولة العثمانية وفرنسا والخديو وهو الاطار الذى تحطم عن آخره كما رأينا ، أما الجريدة فانها تتشيع لمصر . ولمصر وحدها دون أن يكون لها ميل الى الخديو أو السلطة الشرعية ولا للاحتلال أو السلطة الفعلية ولا تعتمد فى نيل الاستقلال الا على المصريين وحدهم .

واذا انتقلنا الى العبارة التالية نرى أن الجريدة بجانب هدفها السياسى وهو الدعوة الى الاستقلال والدستور كانت تهدف الى تربية الشعب ، والنقد الذاتى الموجه هو السبيل الى التربية المنشودة بما يتوجه اليه من بيان الخطأ والصواب وترشيد الأمة بأمورها وحقيقة شخصيتها .

ونرى لطفى السيد يقرر فى ذلك مبدأ قوميا هاما هو الأساس الأكيد لمجتمع اشتراكى تسوده الكفاية والعدل حين يقول :

« لايكون من أهل الوطن الواحد أمة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم » .

ولم ترد تلك الحقيقة على لسان مفكر بعد ذلك حتى تناولها جمال عبد الناصر فى عبارة « اذابة الفروق بين الطبقات » .

فقد مرت بالأمة المصرية حقب طوال وهى مجتمع تسوده الطبقية والتباين الفكرى والسياسى ، ولا يمكن لأمة ان تستقيم على نهج فى الحياة وتحقق شخصيتها وذاتها مالم تتقارب أفكارها وتذوب الفروق الاجتماعية والسياسية بين أفرادها وهو ما نعبر عنه فى علمى السياسة والاجتماع بالتجانس القومى .

وظل الشعب المصرى طوال نصف قرن بعد ذلك يسعى الى تحقيق هذا التجانس القومى وهو ابرز ملامح الشخصية القومية . يكبو مرة وينهض أخرى حتى عرف حقيقة ذاته وهدفه فى انتفاضته الأخيرة عام ١٩٥٢ .

وفى تلك الافتتاحية حدد لطفى السيد هدف الصحافة بقوله « ينصرف الناس غالبا عن التفكير فى الأمور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما » .

فرسالة الصحافة هى التوجيه والترشيد وبذلك تكون الصحافة

أعظم اداة للتربية الشعبية ، بل انها أداة تفوق المدرسة فى ذلك .

اذن فقد صدرت الجريدة لتتحـدث بلسان مصر والمصريين ولتكون اداة لابراز حقيقة الشخصية المصرية وملامحها وأهدافها ، ولترشيد المصريين بحقيقة ذاتهم وسط تلك المتاهات السياسـية والفكرية والاجتماعية التى تلم بهم .

بَيْنَ ثَوْرَتَيْنِ

بين ثورتين

« ان الجماهير لا تطالب بالتغيير ولا تسعى اليه »
« وتفرضه لمجرد التغيير نفسه خلاصا من الملل ، »
« وانما تطلبه وتسعى اليه وتفرضه تحقيقا لحياة »
« أفضل ، تحاول بها أن ترتفع بواقعها الى مستوى »
« أمانيها » .

الميثاق

صدرت الجريدة ـ كما يقول لطفى السيد ـ لتمثل رأى جماعة من الناس هم « الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية الذين كان يصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال ساكتون عن حقوق مصر وان الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقة فى البلاد كالشبان والأفندية والباشوات الاتراك » .

وعلينا أن نقف طويلا امام هذه الصورة ففيها يتمثل تاريخ جيل بأكمله ، وفيها تكمن حقيقة الدوافع والعوامل التى سيطرت على تاريخ مصر فى الفترة التالية حتى قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

وأول ما نتبين من تلك الصورة هو ان هنالك انفصاما فى الشخصية المصرية ، سواء كان هذا الانفصام أصيلا يمتد بجذوره الى أعماق النفس المصرية الخالصة ، أو أنه عارض عليها وان كان يدفعها الى مجار شتى هى التى تطفو فوق السطح . ويبدو هذا الانفصام الظاهرى فى الشخصية المصرية فى تباين الاتجاهات واختلاف النوازع بين هذه الجماعات التى يتكون منها الشعب المصرى هذا التباين الذى يراه كرومر فى اختلاف الرأى بين الأعيان المصريين من ناحية والشبان والأفندية والباشوات، الأتراك من ناحية أخرى ونراه قائما على التباين الطبقى فى كيان الأمة .

فمن هم هؤلاء الأعيان ولماذا كانوا وحدهم أصحاب المصالح الحقيقية ؟

ومن هم هؤلاء الأفندية والشبان ؟

ومن هم هؤلاء الباشوات الأتراك ؟ وكيف جرى الأفندية والشبان جريهم وساروا فى طريقهم ؟

والى أى حد كان هذا التباين الطبقى دلالة على انفصام الشخصية المصرية ؟

ويعود هذا التباين الطبقى الى سيادة عناصر غريبة أكثرها من الترك والجركس منذ سادت العناصر المملوكية المجلوبة ، واشتد هذا التباين الطبقى بعد أن دخلت مصر فى حوزة الدولة العثمانية وآلت بعد ذلك الى أسرة محمد على ، فلم يكن للمماليك قومية يعتزون بها فاعتزوا بنسبتهم الى مصر رغم أنهم كانوا يؤلفون طبقة لها تقاليدها الخاصة ، أما أسرة محمد على فقد أخذت تستعلى على المصريين وتعتز بنسبتها الى الدولة الحاكمة وتفخر بأرومتها العثمانية ، وأصبح هذا التباين الطبقى مصدر الخلاف فى كيان الأمة ، فجماعة الذوات أو الباشوات الأتراك كما كان يسميهم الانجليز ما زالت تتمتع بالنفوذ والسلطان وتلوذ بالخديو وتتجه بآمالها الى الباب العالى ، حتى أن توفيق لم يفد من درس الثورة

العرابية القاسى ، والتى كان من أسبابها تلك الامتيازات التى كانت لتلك الطبقة ، فاستمر يعتمد عليها ويؤثرها بالنفوذ والسلطان ويحيى بين حاشيته وبلاطه المثل التركية القديمة ورضيت هذه الطبقة عن اتجاه الحركة الوطنية الى الباب العالى وتعاونها مع الخديو ، أما جماعة الأعيان ، وقد رأينا كيف برزت على مسرح الأحداث فى أواخر حكم اسماعيل وبداية حكم توفيق وكيف بدأت كفاحها الدستورى عندما حال توفيق دون تنفيذ دستور ١٨٧٩ بعد خلع اسماعيل وتوليه منصب الخديوية فأسست الحزب الوطنى سرا ، وأصدر هذا الحزب الوطنى أول بيان سياسى فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ ، طبع منه عشرين ألف نسخة وزعت خفية ، فلما قامت الحركة العسكرية بقيادة الضابط المصرى أحمد عرابى بسبب التفرقة فى المعاملة بين الضباط المصريين والضباط الجراكسة . انضم هؤلاء الأعيان اليها ، ودفعوها الى الاتجاه الوطنى والمطالبة بالدستور ، ذلك الاتجاه الذى سارت عليه الثورة العرابية فيما بعد .

حتى اذا ما انتهت الثورة العرابية الى الفشل الذى منيت به وشرد قادتها بين منفى ومحكوم عليه بالسجن ومعزول من خدمة الحكومة . كان لهذا الفشل أثره فى الحركة الوطنية التى قادتها الثورة العرابية فانتكس نموها وران اليأس عليها ، كما

كان له أثره فى حياة الناس وفى أخلاقهم ، فنكصت الأخلاق شر نكوص وغدا الناس وهم أقرب الى مصانعة العهد الجديد من مجافاته أو معاداته حرصا على مصالحهم أو خوفا من أن ينالهم اتهام (العرابية) ، فقد غدا توفيق وليس له من الأمر شيء بعد أن سلبه الاحتلال برضائه كل سلطة ، الا ان ينكل بالعرابيين أو من تناله شبهة العرابية .

وفى هذا العهد الجديد الذى أصبح للاحتلال فيه كل السلطان والنفوذ ، عمل الاحتلال على جذب المصريين اليه فكان أول ماعمله أن أبدل حكم الاعدام الذى صدر على قادة الثورة العرابية بالنفى المؤبد ، ثم عمل على ابطال السخرة وحارب الرشوة وأبطل العقوبة البدنية (أو الكرباج) ليجذب اليه الفلاحين ، ومن ناحية أخرى أخذ يقرب اليه الصفوة من المصريين .

وفى ظل الاحتلال نمت مصالح طبقة الأعيان وزادت ثرواتهم بما عاد عليهم من تصفية املاك الدومين والدائرة السنية ـ مما سبقت الاشارة اليه ـ وساعد الاحتلال أفرادها من المتعلمين على تولى المناصب العامة .

ويرى « الجود » ويشاركه « يونج » أن السياسة الانجليزية كانت ترمى الى احلال المتعلمين المصريين فى المناصب العامة محل

العناصر التركية التى تحتكرها ، وقد مهد الانجليز للمصريين هذا السبيل حقا ، ولكنهم لم يتعرضوا لامتيازات الطبقة التركية القديمة من الذوات والباشوات الذين يعيشون فى ظل الخديوية ويؤثرهم الخديو بالنفوذ والسلطان ، ويرمى الانجليز من وراءذلك الى خلق نوع من التوازن بين طبقتين تتجاذبان القوى فى كيان الأمة العام حتى يكون فى أيديهم زمام الترجيح ويضربوا كلا منهما بالأخرى وفقا لسياستهم التقليدية فى المستعمرات « فرق تسد » .

وكانت هذه الطبقة من المصريين — كما قلنا من قبل — تنفس على طبقة (الذوات) التركية ما تتمتع به من امتياز فى مناصب الدولة أو جاه يضفيه عليها تعصب الحاكم لابناء جلدته جريا على السياسة التى اختطها محمد على باعتبار مصر ضيعة له ولذويه وأبناء جلدته ، فكرهت الحكم الخديوى وتطلعت الى قيام حكومة وطنية وأصبح شعارها « مصر للمصريين » ، وعلى يدها ظفرت البلادبدستوريها الديمقراطيين عام ١٨٧٩ وعام ١٨٨٢ قبل الاحتلال البريطانى ، وانحازت الى الثورة العرابية فى بدايتها .

ولم تكن عبارة « مصر للمصريين » فى ذلك الوقت تعنى أكثر من أن يكون الحكم فى مصر للمصريين لا للاتراك أو الجركس

أو الأجانب ، وكان الأجانب قد بدأوا يتغلغلون فى الاشراف على الادارة المصرية منذ حدث الارتباك المالى فى أواخر حكم اسماعيل وكان من أسباب الثورة العرابية الرغبة فى الخلاص من هذا التدخل الأجنبى أيضا ، ولم يتطور مدلول هـذه العبارة وتلبس معناها الحقيقى الا على يد لطفى السيد حين دعا الى استقلال مصر استقلالا تاما .

ولم يكن مصدر التناقض فى مدلول تلك العبارة الا خوف دعاتها من التعرض للرابطة العثمانية بما لها من جلال ومهابة دينية فى نظر الجماهير فان فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية لم تراود دعاة القومية فى البلاد العربية الا فى زمن متأخر لم يترك لها قيام الحرب العالمية الأولى وقتا للاعلان عن نفسها بشكل سافر ، وكانت دعوة « مصر للمصريين » بمدلولها هذا أشبه بالدعوة الى الحكم « اللامركزى » فى الشام والعراق حينذاك ، وحتى لطفى السيد نفسه حين أخذ بدعوته الى الاستقلال بأنه يدعو الى الانفصال عن الدولة العثمانية أنكر ذلك وكتب يقول انه يدعو الى الاستقلال التام ولم يدع الى الاستقلال الكامل مما سبقت الاشارة اليه .

واستمرت النزعة الدستورية تسوق هذه الطبقة ـ طبقة الأعيان ـ وتحدوها للحد من سلطة الخديو المطلقة ولتشارك مشاركة فعلية فى شئون الحكم حتى بعد الاحتلال .

ولا يصح لنا أن تتجاهل تلك العوامل النفسية التى ألمت بطبقة الأعيان المصريين الجديدة فقد أتيح لها أن تشهد مظالم اسماعيل واستبداد الحكم التركى ، بل ان أفرادها أنفسهم هم الذين كانوا يتعرضـــون لقسوة الحكام الاتراك ما لم يلب هؤلاء المصريون مطالبهم فى جباية الأموال وتسخير الفلاحين .

ولا ننسى أيضا تعالى الأتراك على المصريين عامة من الأعيان والفــلاحين فكانت كلمة « فلاح » يطلقها هــؤلاء الأتراك على المصريين كناية عن الحطة والازدراء .

وكان هذا مبعثا لتناقض فكرى شديد ، فالمصريون يكرهون الأتراك ويمقتون الأسرة الحاكمـــة ويعرفون أن « آخر خدمـــة الغزة علقة » الا أنهم فى الوقت ذاته يتمسكون بولائهم للخلافة وللذات الشاهانية فى الآستانة . فاذا تعمقنا فى أغوار النفس المصرية زال هذا التناقض ، فقد عرفنا ما للدين من جلال وقداسة فى نفوس المصريين على مدى التاريخ ، حتى كانت مصر وحدها هى التى وقفت تذود على دار الاسلام والمسلمين أمام الغـــزو الصليبى والمغولى وهى التى حمت الخلافة واجارتها فى القاهرة حين حطم التتار بغداد وفتكوا بالخليفة العباسى .

ومن المعروف ـــ كما قلنا ـــ ان الخديو عباس ما كان يبغى من

وراء تأييده للحـــركةالو طنية وتعضـــيدها الا استعادة ســـلطان الخديوية أمام سلطان الاحتلال البريطانى الجاثم على البـــلاد والممثل فىسلطة العميد البريطانىومستشاريه الانجليز فىالحكومة المصرية .

ومن المعروف أيضا أن الدستور لم يكن من مطالب مصطفى كامل فى البداية بل أن من بعض ماطالب به استعادة الخديو لحقه الشرعى فى الحكم وان كان يقصد فى الحقيقة أن يكون الحـــكم للولى الشرعى دون العميد البريطانى الا أنه لم يقترح ما يقيـــد سلطة الخديو ولعله لم يرد أن يشغل نفسه بأمرين فى وقت واحد الا انه عاد بعد تنكر الخديو للحركة الوطنية يتحدث عن الدستور وكان من الأوفق أن تقوم الحركة الوطنية وهى تطالب بتقييد سلطة الخديو الى جانب مطالبتها بالجلاء حتى لا يكون هذا الخلاف فى لرأى بين المصريين .

لهذا لم يكن غريبا ان يقف هؤلاء الأعيان بمعزل عن الحركة الوطنية وهم الذين أيدوا من قبل الحـــركة العرابية وناصروها وحملوا دعوتها الدستورية لتقييد سلطة الخديو الذى ساق البلاد بوســـتبداده ورأيه الأخرق الى الخراب ، الا أنهم لم يقفوا من الحركة الوطنية موقف المعارضة فما كان هنالك من يرضى ببقاء الاحتلال البريطانى وآثروا السكوت حتى لا يفلوا من عضدها

وان أبدوا سخطهم وعدم رضائهم عن اتجاهاتها فيما بينهم وخاصة فيما يتصل بولائها للخديو ، اذ أن كراهية هذه الطبقة للاتراك والحكم التركى لم تبلغ حد المطالبة بالانفصال عن الرابطةالعثمانية أو التنكر للجامعة الاسلامية .

والى جانب هذا الفريق من الأعيان كان فريق من الشباب المثقف هم أبناء تلك الطبقة من الأعيان كما قلنا أتيح لها أن تشارك فى الوظائف العامة ، واتاح لها ثراؤها أن تنال حظها من التعليم وأن تتصل بالثقافة الغربية فتتأثر بها ويكون لهذا التأثير أعظم الأثر فى تفكيرها واتجاهاتها ، فقد شهد هذا الفريق من المثقفين تطور النزعة القومية فى أوربا ، تلك النزعة التى بلغت أوج ازدهارها ونجاحها فى البلاد الأوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فأخذوا ينشدون لبلادهم حياة سياسية وقومية كالحياة التى تحياها دول أوربا المتقدمة ، وكانت دعوتهم للقومية المصرية أو ما كان يسمى أحيانا بالجامعة المصرية مدفوعة بتلك المؤثرات التى ساقت تفكيرهم السياسى والقومى ولذلك كانت دعوتهم الى الانفصال بمصر عن الرابطة العثمانية وان لم تقلها سافرة والابتعاد عن فكرة الجامعة الاسلامية لا تتأثر كالأعيان بكراهية النفوذ التركى والخوف من عودة الطبقة التركية الى سابق جاهها ، وانما تتأثر فى الدرجة الأولى بهذا الأثر الفكرى للثقافة الغربية فى تفكيرهم . فلم يكن هذا الفريق

من المثقفين يؤمن بالخلاف الفكرى فى الأمة الواحدة وكانوا يرون أن التوافق الفكرى دعامة التجانس القومى ، لذلك كان من أهداف الجريدة ـ كما قلنا ـ ارشاد الناس الى أن لهم «وجودا عاما فوق وجودهم الخاص» وانه « لا يكون من أهل الوطن الواحد أمة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم » .

ولم يكن من رأى هذا الفريق من المثقفين الذى يمثله لطفى السيد ويبرز آراءه ويفلسفها ، الاعتراف بتلك الطبقية العنصرية بين قوم يتخذون مصر وطنا لهم فالكل سواء ولكل من الحقوق ما للآخر لا فرق بين مصرى أصيل ، وتركى يعيش فى مصر ويتخذها سكنا وينتفع بخيرها وبرها على أن يؤمن بمصر ويشرف بالانتساب اليها لأن الوطنية لا تقبل الشرك .

ويشرح لطفى السيد هذا الرأى بقوله :

«سئل أحد علمائنا البلغاء فقيل له ما المصرى ؟ فقال : المصرى هو الذى لا يعرف له وطنا آخر غير مصر . أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ويتخذ له وطنا آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة » .

«على هذا النظر يجب أن نقرر أن المصريين هم أهل هذا

القطر المصرى الأصليون وكل عثمانى أقام فيه على سبيل القرار واتخذه وطنا له دون غيره من الأوطان العثمانية الأخرى . وليس هذا المذهب جديدا ، بل هـو مذهب القانون المصرى من زمن طويل » .

« هؤلاء المصريون من حقهم أن يكـون لهم الانتفاع بمصر أولا وبالذات ، وعليهم الواجبات القومية المكتوب منها فى القوانين والمفروض بالعرف . عليهم أن تكون محبتهم لها خالصة من كل شراك ، وتفانيهم فى خدمتها بعيدا عن أى اعتبار آخر . عليهم أن تدل أقوالهم وأعمالهم على أنهم لا دار لهم الا مصر ولا عشـيرة لهم الا المصريون . أولئك هم المصريون ــ الا الذين يظنون أن مصر مستغل وقتى يستغلونه ، لهم غنمه وليس عليهم غرمه ، أو الذين يتمثل الوطن فى عقولهم بصورة تجارية لايخالطها أثر من آثار العواطف القومية ، وأولئك يصعب على مصر أن تتخـذهم أبنـاءها وتلقى على كواهلهم همهـا فى الحاضر واطمـاعها فى الاستقبال .

« لا يفهم مما أقول أننا ندعو الى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين ، بل على ضد ذلك ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل ، ندعو الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى

كسبوها بالاقامة فى مصر ، أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمــالهم من الانتساب الى هذه الجنسية الشريفة ، يقيمون بأجسامهم فى مصر وعقولهم وقلوبهم تتجه غالبا خارج حــدودها الى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها ولفظتهم من أرضها . ندعوهم أنهم ما داموا مصريين أن يقطعوا ميولهم عما عدا مصر ، لأن الوطنية ــ وهى حب الوطن ــ لا تقبل الشرك ولأن الرقى المصرى محتاج لعقولهم الراجحة وسواعدهم القوية .

« سيقولون اننا بما نقرر لا نأتى بشىء جديد ، ولكننا نذكر الأوليات الوطنية التى يجب أن نكون قد فرغنا من أمرها من زمان طويل ، نعم ونحن نقول ذلك مع القائلين ، ولكن هذه الأوليات الوطنية لا تزال مع الأسف غير معمول بها ، لدينا منها مثالا شائعا جدا ، يدل فى عمومه على نقص ادراك الوطنية المصرية وانحطاط فى المطامع المصرية ، فلو رجع كثير منا الى أنفسهم ونظروا فى أعماق ضمائرهم ، وراجعوا ما يقولون فى مجالسهم وتدبروا أعمــالهم ، رأوا أن بعضنا لا يزال يحب الانتساب الى بلاد أخرى دون مصر ، وهذا الميل يبين فى القول ويتجسم فى العمل فمن ذا الذى يستطيع أن يسمى من يحبون غير مصر مصريين ؟ »

« مصريتنا تقضى علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا لا نوجه

وجهنا شطر غيره ويسرنا ان هذه الحقيقة شائعة فى الأكثرية المصرية لأن هـذا الشيوع سيوشك أن يعلم جميع المصريين من غـير استثناء »

الا أن هؤلاء المثقفين الذى تأثروا بالثقافة الغربية وهزتهم النزعة القومية والكبرياء الوطنى اللذين سادا أوربا فى القرن التاسع عشر ونسب اليهما كل مجد حققته الدولة أو رخاء أصابته أو تقدم نالته فاعتنقوا الفكرة القومية ونادوا بأن تكون «مصر للمصريين» كانوا قلة نادرة ، فالكثرة الغالبة منهم قد امتصتهم الوظيفة وحالت بينهم وبين أن يجهروا برأيهم فراحوا يتلمسون له المنافذ «كفتحى زغلول» الذى قيدته الوظيفة بأغلالها حتى قبل ان يكون عضوا فى المحكمة المخصوصة التى قضت بأحكامها القاسية على منكوبى دنشواى فباء بغضب الشعب ولعنته ، فقد راح يترجم المؤلفات الغربية التى تنم عن هذه النزعة القومية وهى السر فى تقدم الغرب ككتاب «أصول الشرائع» لبنتام و «خواطر وسوانح فى الاسلام» للكونت هنرى دى كلتزى ، و «روح الاجتماع» و «تمدن العرب» و «سر تطور الأمم » لجوستاف لوبون ، و « سر تقدم الانجليز السكسون » لريمون ديمولان ، وكتاب بورجار فى الاقتصاد السياسى ، وجمهورية افلاطون ، و « الفرد ضد المملكة » لسبنسر

ويرى لطفى السيد ان فتحى زغلول ينكر الاشتراكية التى تقوم على ديكتاتورية الطبقة ويدين بالاشتراكية الديمقراطية « سواء أكان ذلك فى التربية والتعليم ام فى الاصول الاجتماعية والسياسية بل والاقتصادية أيضا» ويبدو ذلك غريبا فى ذلك الوقت ولكنه لم يكن غريبا ممن كانت تستهويه تلك الدراسات الاجتماعية والسياسية ومن نشأ فى بيئة يغلب عليها التفاوت الطبقى والاستبداد الفردى .

ومما يدل على فناء فتحى زغلول واضرابه من المصريين المثقفين فى الوظيفة وولائهم لها ولاء طغى على ولائهم القومى وعقيدتهم الوطنية ما جرى بينه وبين الخديو عباس من حديث حين استقبله فى ٦ يناير سنة ١٩٠٨ ، وكان فتحى زغلول يظن ان الخديو غاضب عليه بسبب الحكم الذى اصدره فى قضية دنشواى فاراد أن يعتذر عنه «بأنه كان مسوقا اليه» فأجابه « بأنه لا يفكر فى ذلك ولاسيما أنه لم يكن رئيس المحكمة المخصوصة ، وانه اذا كان هناك انتقاد من هذه الناحية فيكون على بطرس باشا غالى وهو من المخلصين لسموه » أما ماينتقده عليه قبل كل شيء فهو انه « من حزب الشيخ محمد عبده الذى افتضحت نياته السيئة اخيرا » ثم قال له ان مما ينقده عليه أيضا فهو أعماله فى حزب الأمة ، وفى الجريدة ، وقد

أراد فتحى زغلول ان يعتذر عن ذلك فأبدى للخديو عدم رضائه عن خطة الجريدة وانه حرر لمديرها خطابا بذلك ووعد الخـديو باحضار هذا الخطاب له .

ومن هؤلاء المثقفين الذين امتصتهم الوظيفة فحالت بينهم وبين الاعلان عن ارائهم أيضا عبد الخالق ثروت (بك) ومحمد محمود (بك) وكان لهما دور بارز فى السياسة المصرية بعد عام ١٩١٩ .

ومن هؤلاء المثقفين أيضا طلعت حرب وكان عضوا فى شركة الجريدة وفى حزب الأمة وقد عزف عن الاصـلاح السياسى الى الاصلاح الاقتصادى ونرى فيما نشره فى عدد الجريدة الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٠٧ صورة واقعية لما قام به بعد ذلك بثلاثة عشر عاما حين دعا الى انشاء بنك مصر عام ١٩٢٠ وما تلى ذلك من مشروعات اقتصادية كان لها اطيب الأثر فى نهضة البلاد الصناعية والتجارية واستقلالها الاقتصادى فهو يقول :

« نطلب الاستقلال العام ونطلب أن تكـون مصر للمصريين وهذه أمنية كل مصرى ، ولكن مالنا لا نعمل للوصول اليها » .

« أو هل يمكننا ان نصل الى ذلك الا اذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوربى ، ومهندسنا المهندس الاوربى ، والتاجر منا التاجر الأجنبى والصانع الصانع الأوروبى » .

. وماذا يكون حالنا ولاكبريتة يمكننا صنعها نوقد بها نارنا ؛ ولا ابرة لنخيط بها ملبسنا ، ولا فابريقة ننسج بهـا غزلنا .. ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية ، فما بالنا عن ذلك لاهون ، ولا نفكر فيما يجب علينا عمله تمهيـدا لاستقلالنا ان كنا له حقيقة طالبين وفيه راغبين » .

« أرضينا أن يكون التعليم عندنا قاصرا على تخريج مستخدمين للحكومة ، وأن نكون فى بلادنا غرباء ، ولو غضب علينا الأجانب يوما ، ومنعونا الملبوس والمأكول كما منعوا نقودهم عنا فى هذا العام * لأمسينا جياعا عرايا » .

ثم يقول :

« علينا أن نكون عاملين فى بلادنا على احياء فكرة التجـارة وملكة الصناعة فى أبنائنا » .

ويستطرد فيقول : أن واحدا من المصريين لم يفكر « فى عمل قهـوة او لوكاندة على ذلك النمط الاوربى وبنظامـه وترتيبه ونظافته » . وأن الكثيرين منا « يشترون ما يلزمهم من الأجنبى مفضلين اياه على مواطنيهم بحجة ان المصرى لا يتقن عمله أو ليس

(*) عام ١٩٠٧ وهو العام الذى حدثت فيه الازمة المالية التى نجمت عن المضاربة وادت الى انكماش التداول النقدى .

عنده ما عند الاوربى من نظافة وتوفر شروط الاتجار ، ولم أر واحدا منهم أتعب نفسه فى تعريف المصرى التعيس ما ينقصه او تفهيمه بالعمل ما يجب عليه ان يعمله » .. « وارى البنوك ومحلات التجارة والشركات ملأى بالأجانب وشبابنا ان لم يستخدموا فى الحكومة لا يبرحون القهاوى والمحلات العامة » .. « وأرى المصرى منا أبعد ما يكون عن تأسيس شركات زراعية وصناعية وغيرها حتى اذا أسس الأجنبى شركة أخذ المصرى يضارب فى أسهمها كأنه مقدر عليه الا يكون له حظ فى الغنم الحقيقى وانه لا يأتى الا الأدنى من الأمور » .. « وأرى المصرى يقترض المال بالربا ولا يرغب فى تأسيس بنك يفك مضايقته ومضايقة أخيه وقت الحاجة لأن البنك يشغل رأس ماله بالربا واذا أودع فى بنك وديعة لا يأخذ فائدة عليها لذلك السبب وهو الذى يدفع الربا اضعافا مضاعفة وقت اقتراضه » .

ويختتم مقاله بقوله :

« فى اليوم الذى يصبح فيه المصرى عضوا عاملا فى الشركات التى تستنفذ ينابيع ثروات البلاد وله فيها نصيب وافر فى ادارة بنوكها ورأس مالها ، وله رأى معدود فى جميع المشروعات المالية ــ والمال هو أس كل الأعمال فى هذا العصر وقوام كل ملك ــ فى

ذلك اليوم يحق للامة أن تطلب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الحقيقى الذى يخرج رجالا اكفاء لتلك الغايات التى أوضحتها . أما اذا بقينا على ما نحن فيه من جمود وصلابة وتهاون وتقاطـع وتحاسد فقد سجلنا على أنفسنا عدم الكفاءة وعدم الأهلية الى الأبد وجنينا جناية كبرى على أولادنا وذرارينا » .

وثمة ما يدل على هذا الاتجاه بين المثقفين منذ البداية ففى عام ١٩٠٥ بدأت حركة بين الطلبة ترمى الى توحيد صفوفهم انتهت بتأسيس نادى المدارس العليا فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ يضم اليـه الطلبة والخريجين ، وافتتحت داره فى ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ ، وكان من أعضاء مجلس ادارته عبد الخالق ثروت عن الخريجين وحافظ عفيفى عن الطلاب وانتخب لرئاسته عمر لطفى الذى يلقب « بأبى التعاون » لأنه أول من أسس الحركة التعاونية وبدأها فى مصر .

وفى نادى المدارس العليا هذا تأسست جمعية رعاية الطفـل ونشأ مشروع النقابات الزراعية والجمعيات التعاونية ، كمانوقشت بين جدرانه فكرة انشاء جامعة مصرية ، وكانت اللجنة التأسيسية للجامعة الأهلية (المصرية) تجتمع فيه فى البداية ، وبرعاية أعضائه انشئت مدارس الشعب للمساهمة فى نشر التعليم وتطوع الأعضاء للتدريس فيها ، وفيه احتفل بأول بعثة ارسلتها الجامعة الى أوربا فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٠٨ .

وكما كان تأسيس نادى المدارس العليا أحـد مظاهر الوعى القومى واتجاهه الجديد فان التفكير فى انشاء الجامعة المصرية مظهر آخـر له ، ففى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اجتمعت اللجنـة التأسيسية لانشاء الجامعةالمصرية بمنزل سعد زغلول وكان مستشارا بالاستئناف وذلك على أثر نداء نشره فى الصحف مصطفى كامل الغمراوى من أعيان بنى سويف المثقفين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٦ دعا فيه أبناء الأمة للتبرع لانشاء « مدرسة جامعة » وافتتح التبرع لها بخمسمائة جنيه .

وثمة طائفة أخرى كان لها أثر بالغ فى بناء الحركة الوطنية منذ البداية وطوال السنوات اللاحقة حتى تسنمت ذروتها فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، هى طائفة طلبة المدارس وهم من كان يعنيهم كرومر بوصف « الشبان والأفندية » فهؤلاء الشبان والأفندية من طلبة المدارس والى جانبهم صغار الموظفين ممن نالوا حظا من التعليم أتاح لهم الخدمة فى دواوين الحكومة ، كانوا على الدوام سـند الحركة الوطنية ووقودها الحارق وكانوا دائما مع الجانب الثورى أو الجانب المتطرف كما وصفهم الانجليز ، لذلك وقفوا الى جانب مصطفى كامل يتحمسون له ويلتفون حواليه كما كانوا بعد ذلك الى جانب سعد زغلول .

وأخيرا كان الفلاحون والعمال وأصحاب الحرف والمهن الحرة ولم يكن لهم دور ايجابى فى الحركات العنيفة التى يقوم بها الطلبة للتعبير عن مشاعرهم ولكنهم فى الواقع كانوا من أشد أنصـار الحركة الوطنية والمتشيعين لها ، الحركة الوطنية التى تتمثـل فى معاداة الاحتلال وقد هان لديهم كل ظلم الا عدوان الانجليز علم بلادهم واحتلالهم لها .

وقد ظن الانجليز انهم كسبوا الفـلاحين حين خلصوهم من السخرة والكرباج وخففوا عنهم وطأة الضرائب والعـوائد التى أثقلت كاهلهم من قبل وعرضتهم فى سبيل أدائها للجلد والضرب والسجن ، حتى كان حادث دنشواى فأيقن الانجليز أنهم ماكسبوا الفلاحين الى جانبهم أبدا وضاع كل أمل لهم فى اكتساب عطفهم .

وقد هز حادث دنشواى ضمير العالم المتمدن وثار لفظاعتـه كثير من أحرار الانجليز واعتبره الاستعماريون اكبر خطأ ارتكبوه فكانوا يشيرون اليه بوصفه حادثا تعسا مشئوما ، فقد عرفوا بعده أنهم فقدوا ثقة المصريين الى الأبد .

وجاءت وفاة مصطفى كامل بعـد ذلك فأظهرت للانجليز أن المصريين على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم قلب واحد وان اختلاف الرأى بينهم لا يحول دون اجماعهم على كراهية الاحتلال وبغضه

فقد خرجت مصر جميعا بقلب كليم وعين دامعة تشـيع الفقيـد الشاب الى مقره الأخير .

ثم كان اجتماع المصريين على الوقوف أمام الاحتـلال فى كل ما يمس مصالح مصر أو حقوقها حتى كانت ثورتهم العارمـة سنة ١٩١٩ .

اذن لم يكن هذا التباين الطبقى سببا فى انفصام الشخصية المصرية ولم يكن اختلاف الرأى دليلا على ما يبدو أو يلوح من الظن فى وجود هذا الانفصام ، ولكن مصر كانت تتعرف على ذاتها وقد غلب عليها اتجاه معين فلما فشل عادت الى ذاتها تستوحيها سواء السبيل ، ولم يكن بها حاجة الى هـذا الاستغراق الذهنى الذى يلم بالأمم الحديثة على التاريخ ، فلها من التجربة الانسانية المديدة ، ما يهدى فطرتها السليمة الى السبيل من قصدها ، فانها لتحس الحقيقة بضميرها واحساسها أكثر مما تستوعبها بعقلهـا وفهمها .

لقد وقفت صفا واحدا وراء مصطفى كامل وهى تؤمن بزعامته « فان مصطفى كامل ـ كما يقول لطفى السيد ـ كان شـعاره الوطنية ووسيلته الوطنية ، وكلماته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى ، فاذا ذكرت مصطفى كامل

بخير ، فانما تطرى الوطنية ، واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل .. كانما هـــو والوطنية شيء واحد .. »

« ولقد تمثل ذلك يوم وفاته في هذه المظاهرة التى لم نعرف لها في ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الأمة في أمـر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه »

« كل هــذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبـا سياسيا ، ولا طريقة منطر ائق المنازعات السياسية ، بل هو أعلى من ذلك .. هو التضامن القومى ، والجامعة الوطنية » .

لم تكن بمصر حاجة اذن الى هذا الاستغراق الذهنى الذى يلم بالأمم الحديثة ، ولكنها لا تتعجل الأحداث بل تواجهها في صبر وأناة حتى تتبين سبيلها وتسلك طريقها ، فانها بما أوتيت من قدرة على المقاومة المرنة ، تستطيع التغيير في سهولة ويسر ، ولعلها في ذلك أكثر أمم الأرض استجابة للتحدى ، فقد وقفت وراء مصطفى كامل صفا واحدا لتحقيق أمانيها الوطنية ، فلما عرفت كما عرف مصطفى كامل أن الاعتماد على اوربا وفرنسا والدولة العثمانيـة والخديو لن يصل بها الى أمانيها ، كانت قدرتها على التغيير أعظم واق لها من الاندفاع في طريق خاطىء فعادت الى ذاتها لتتبين أى

الطرق اهدى وأقوم ، وكان هذا الطريق الأقوم هو أن تعتمد على نفسها فى تحقيق أمانيها .

لذلك بدأ مصطفى كامل يتجه الى الشعب لا يكتفى منه بالوقوف وراءه ونصرته فى جهاده بل واتجه الى التعليم فهو الدعامة الأولى لقوة الشعب وقدرته على تحمل مسئولياته ، فدعا الى انشاء الجامعة على صفحات اللواء فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ أى قبل أن يوجه « الغمراوى » نداءه للتبرع لانشاء « مدرسة جامعة » بعامين ، وعاود الدعوة الى انشائها فى العام التالى ، وكان تأسيس الحزب الوطنى فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ خطوة عملية للاتجاه بالحركة الوطنية الى الشعب ذاته ، ولو امتد الأجل بمصطفى كامل لظهر هذا التغيير جليا فى خطته . ففى اليوم التالى لتأسيس الحزب الوطنى دعا محمد فريد الى الدستور وقاد الحزب حركة شعبية للمطالبة به ، وتبنى مع نادى المدارس العليا انشاء مدارس ليلية لتعليم الفقراء والعمال مجانا ، وهى المدارس التى عرفت بمدارس الشعب ، وبلغ عدد المدارس التى أنشأها الحزب عام ١٩٠٩ لتعليم العمال مجانا أربع مدارس فى الخليفة وبولاق وشبرا والعباسية فى كل مدرسة منها مائة وعشرون تلميذا من مختلف الحرف ، كما عنى بشئون العمال وطالب بتشريع يحمى حقوقهم ، ويحدد لهم ساعات العمل المقررة

ويحدد سن العمل ويحمى الأحداث من استغلال أصحاب الصناعات ويبدو هذا الاتجاه واضحا فى « تقـرير الحزب الوطنى » الذى يستعرض فيه حالة البلاد عام ١٩٠٧ ففيه يظهر الاهتمام بشتى ألوان الاصلاح الداخلى من الاهتمام بالتعليم الى الاهتمام بالصحـة والزراعة والصناعة والتجارة وشئون الفلاحين والعمال الى جانب المطالبة بالجلاء والدستور والافراج عن مسجونى دنشواى .

وينم هذا الاتجاه الجديد للحـزب الوطنى عن التقارب بين اتجاه الحركة الوطنيـة التى يتشيع لها سـواد المصريين واتجاه المفكرين والمثقفين والأعيان من أعضاء حزب الأمـة ومن الذين تأثروا بالنزعة القومية فى أوربا ومن الذين نسب اليهم أنهم اتباع الشيخ محمد عبده ورواده ممن كانوا يرون الاهتمام بالاصلاح الداخلى وخاصة التعليم وتقييد سلطة الخديو قبل أى شىء آخر .

الا أن الخلاف بقى قائما فى ناحية واحدة وهى : تقرير علاقة مصر بانجلترا ، أو بلفظ آخر بدولة الاحتلال .

فالحزب الوطنى ما زال ينكر على الاحتلال حق البقاء فى مصر وينكر على الدولة المحتلة أن تسوس أى أمر من أمور مصر .

وحزب الأمة يرى أنه لا بأس من تنظيم هذه العلاقة بين مصر وانجلترا على أساس يكفل استقلال مصر وسيادتها على أراضيها والمحافظة على المصالح البريطانية .

وبين هذين الاتجاهين كان السواد الأعظم من المصريين يقف موقف العداء السافر من الاحتلال والمحتلين ، هذا العداء الذى انفجر ثورة شعبية عاتية سنة ١٩١٩ .

ولكن الاتجاه الذى غلب فى النهاية كان اتجاه حـزب الأمة فكانت المفاوضات العديدة التى استغرقت حياة جيل بأكمله تخللها تصريح من جانب واحد هو تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، واتفـاق آخر لتسوية المسائل المعلقة فى هذا التصريح وهو الاتفاق الذى عرف بمعاهدة ١٩٣٦ ، ثم محاولات لاتفاق آخر على الجـلاء المشروط حتى ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ التى ختمت حياة هذا الجيل وأعماله وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ مصر كتبت فى أول سطورها نهاية الاحتلال .

فقد رأينا كيف تكونت الأحزاب السياسية عام ١٩٠٧ ومعنى هذا أن هنالك اتجاهات جديدة بدأت تسفر عن طريقتها وأسلوبها فى علاج المسألة المصرية ، ومعناه أيضا أن قادة الحركة الوطنيـة بدأوا يعتمدون على الشعب فى تحقيق الأمانى الوطنية بدل الاعتماد على قوى خارجية . والاعتماد على الشعب يتطلب اعداده ليكون قادرا على الحركة والتغيير والاستجابة لروح الكفاح .

وقد اتفق الحزب الوطنى وحزب الأمة على الوسائل اللازمة

للنهوض بالشعب وأولها تقرير حق الشعب فى حكم نفسه بنفسه ثم العمل على نشر التعليم وجعله اجباريا فى المرحلة الأولى وتهيئة الفرص للتعليم العالى ، والارتقاء بالزراعة والصناعة وتحقيق الاستقلال الاقتصادى .

ولكن بقى الحزبان يختلفان فى تقرير علاقة مصر بدولة الاحتلال ، فالحزب الوطنى يرى أن المسألة المصرية تحكمهامعاهدة لندن عام ١٨٤٠ وان الاحتلال يقوم على الغصب والكراهية ولا حق له فى البقاء وان أية محاولة للاتفاق مع انجلترا اعتراف بوضع الاحتلال فى مصر ، وحزب الأمة يرى أن الاحتلال حقيقة واقعة وان السبيل الى مهادنته وتنظيم علاقة مصر به هو أقوم السبل للقيام بما تنشده من اصلاحات للارتقاء بالوطن ارتقاء يكفل له أخيرا الوصول الى تحقيق الاستقلال التام .

ولم يكن هذا اتجاه حزب الأمة فحسب بل كان اتجاه مجلس شورى القوانين أيضا ، فعند زيارة ولى عهد انجلترا لمصر عام ١٩٠٦ طلب أعضاء مجلس شورى القوانين مقابلته ، فلما قابلهم خاطبهم باعتبارهم نواب البلاد وفى تلك المقابلة ألقى رئيس الجمعية العمومية خطابا أمامه طلب فيه أن يزاد الجزء المخصص للتعليم من الميزانية المصرية لأن المقرر لا يكفى لسد حاجة البلاد ، ثم اتفق أعضاء الجمعية العمومية فيما بينهم على أن يتقدم السيد محمد

توفيق البكرى نقيب الاشراف وعضو مجلس شــورى القوانين بخطاب مفتوح على صفحات الجرائد يطلب فيها من « الأمير ولى العهد مساعدة عاجلة لنيل المصريين دستورا نيابيا شريفا » .

ولم يكن هذا الاتجاه الى التعاون مع الاحتلال وليد الساعة بل يرجع الى سنوات عديدة قبل ذلك ، حين رأى الشيخ محمــد عبده أن الاصلاح الحقيقى الداخلى هو وسيلة الجلاء ولا ضــير فى الاستعانة بالانجليز فى ذلك .

وكان الشيخ محمد عبده رائد حركة فى الاصلاح الاجتماعى والدينى ، بله التفكير السياسى ، وكان له أثره البارز فى توجيــه الثورة العرابية والاتصــال بزعمائها ، ونفى من مصر حين فشلت حتى اذا عاد اليها بعد سنى المنفى عام ١٨٨٨ أخذ يحد من نشاطه السياسى الا أنه كان يمزج دروسه التى شغل بها فىالتربيةوالتعليم بشىء من السياسة وكان يقول « ان انســانية المرء لا تتم الا اذا عرف الأمور التى تتصل بحرية بلاده واستقلالها اتصالا وثيقا » ، كما كان يحث على حب الوطن ويبين ضرورة اتفــاق الناس على مصالحهم الوطنية .

وكان الشيخ محمد عبده منذ البــداية يميل الى الاعتــدال فوافق مشربه مشرب الأعيان المصريين الذين أصدروا فيما بعــد

الجـريدة وألفوا حزب الأمة ، وخاصة حين نزع عن نفسه رداء السياســة الى العلم والتثقيف وجعلهما وسيلة الى تحقيق الغرض السياسى فى النهاية فمهد بذلك للوطنية المعتدلة والتف حوله كثير من الوطنيين المعتدلين .

ومما يذكر أن الشيخ محمد عبده حين عاد من المنفى وضـع تقريرا فى اصلاح التعليم رفعه الى كرومر لا الى غيره تسليما منه بأنه القوة الفعالة ، ونجد أن تصرفه هذا شبيه بتصرف أعضـاء الجمعية العومية حين تقدموا بمطالبهم بعد ذلك الى ولى عهـد انجلترا عام ١٩٠٦ .

وثمة ظاهرة فى هذا الاتجاه المعتدل الذى لا يجد ضـيرا فى التعاون مع الاحتلال ما دام يحقق مصـلحة مصر وهى أن جـل أصحابه والمنادين به كانوا من رواد الحركة العرابية وأنصـارها فكيف انقلبـوا من التطرف الى الاعتـدال فى ظل الاحتـلال ؟ ولا تفسير لذلك الا أن هؤلاء المعتدلين قد وقفوا من قبل متحمسين للثورة العرابية لأنها تنشد تحقيق الكيان الاجتماعى والسياسى للمصريين وتعمل على تقييد سلطة الخديو ، فاذا كان الخديو قد انتصر عليها بالتعاون مع الاحتلال فلا غبار عليها ان انتصرت عليه بالتعاون مع المحتلين ، واذا كان الجـلاء سيعود بالخديوية الى استبدادها القديم فلا بد وأن يسبق هذا الجلاء تقرير العلاقة بين

الحاكم والمحكوم أو بين الخديو والشعب والا فان مظالم الخديوية واستبدادها أشد بالمصريين رهقا من مظالم الاحتلال واستبداده ، فالدستور وتقييد سلطة الحاكم كانا أهم ما يشغل بال تلك الطبقة التى تحس وطأة الاستبداد الخديوى وامتياز الأسرة الحاكمة أو من يلوذ بها من الأتراك أو العناصر ذات الأصـــول التركية عليها ، وازدراؤهم لها فقد كان نعت « الفـــلاح » يطلق على كل مصرى كبيرا كان أو صغيرا حتى أصبح مرادفا للازدراء والامتهان .

ولعل طابع الاعتدال فى هؤلاء المعتدلين أن جلهم كانوا يحتلون المراكز المرموقة فى وظائف الدولة وفى مجلس شـورى القوانين وكانوا لهذا على صلة بالقصر وبالوكالة البريطانية ولحرصهم على مصالحهم كان عليهم أن يترضوا الجانبين وخاصة الجانب الأقوى جانب السلطة الفعليـــة الممثلة فى عميـــد الاحتـــلال وفى الوكالة البريطانية .

وظل هؤلاء المعتدلون بمنأى عن الحركة الوطنية لا يجهرون برأيهم فيها حتى تداعت القوائم التى استندت اليها واحدا بعـــد الآخر ، ثم كان حادث طابه وموقف الوطنيين والصحافة الوطنيـــة والخديو منه فوجدت الفرصة مناسبة للاعلان عن رأيها فى شأن يمس حقوق مصر مباشرة ولا يغضب المعتمد البريطانى .

وأصيبت الحركة الوطنية بقيام سياسة الوفاق ، ثم بموت الزعيم

الشباب مصطفى كامل ولما يتخط ربيع العمر ثم بهجرة محمد فريد الذى تزعم الحركة بعده عن مصر مضطرا ليقود الحـــركة من الخارج ، فكانت كل هذه العوامل مجتمعة سـببا فى ظهور المعتـــدلين على مسرح السياسة ينادون بالدستور والاستقلال ، ولم يكن لهـــذا الاســتقلال معنى فى أذهانهم أكثر من تنظيم علاقة مصر بانجلترا على أساس الاعتراف باستقلال مصر .

وكان للطفى السيد فى هذا المضمار دور ايجابى ينم عنه موقفه من العدوان الايطالى على طرابلس عام ١٩١١ حين دعا على صفحات الجريدة الى حياد مصر فقد ظن ــ كما يقول ــ « ان هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وقد أخذت أنبه ــ على استحياء ــ الى واجب مصر فى هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تستطيع أن تنقــذها من الاحتــــلال البريطانى الذى لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتمـــاد على أنفسنا » .

ثم اتفق أن جاءه كتاب من تاجـــر بدمياط لا يعرفه يقول فيه « ان الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز فى عرض البحـــر ، لأنها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر . ولعل تاجر دمياط ذاك

حين بعث بكتابه الى لطفى السيد كان يتابع حملته على صفحات الجريدة مطالبا بحياد مصر » .

وحمل هذا الحادث لطفى السيد على أن يواجه صديقه حسين رشدى وزير الحقانيـــة حينذاك ويطلب اليه « أن نبـــدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط » .

ولم يكتف لطفى السيد بذلك بل رجع الى حسين رشـــدى يطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية وأن تنصب الخديو ملـــكا عليها ، ويعترف لها الانجليز بهذا الاســـتقلال ثم رجاء ــ كما يقول ــ باسم حزب الأمـــة « أن يعرض هـــذا على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر » . وقد سر الخديو بالفكرة ، ورأى تكوين وفد من : سعد زغلول وعدلى يكن ولطفى السيد للسفر الى « لندرة » والسعى لدى الحكومة البريطانية فى ذلك ، وأما كتشنر فقد رفضها « لأن انجلترا لا تريد مضايقة تركيا » وأما محمد سعيد ناظر النظار فقد وصـــفها بأنها « الخيانة العظمى » .

ولم يشايع لطفى السيد فى رأيه غير قلة معدودة ، أما الكثرة فكانت فى صف تركيا فوقف المصريون على اختلاف طوائفهم الى

جانب تركيا وراحوا يجمعون التبرعات والمؤن والأدوية والسلاح لمعونة أهل طرابلس ، وليس لهذا من دلالة الا أن قداسة الخلافة الاسلامية ما زالت تهز الضمائر وأن الدفاع عن دار الاسلام واجب مقدس على كل مسلم ، وبالتالى فان فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية — رغم مساوىء الحكم التركى — لم تكن مما يراود أذهان العرب فى مصر أو فى غير مصر من البلاد العربية الأخرى الباقية فى حوزة العثمانيين أو التى انتهبها الاستعمار منهم كتونس ومراكش فقد كان لهذه الأقطار العربية التى انتهبها الاستعمار فى شمال أفريقية دورها هى الأخرى فى معونة أهل طرابلس .

ومرة أخرى عاد لطفى السيد الى هذا الأمر من جديد عند وقوع الحرب بين ألمانيا وانجلترا ، فقد دعاه حسين رشدى — وكان ناظرا للنظار فى ذلك الوقت — لزيارته وأخبره بوقوع الحرب ، ووجده هو وعدلى يكن وزير الخارجية ، يعدان اعلانا بالأحكام العرفية فى البلاد .

فقال له لطفى السيد :

— أتدخل الحرب مجانا يا باشا ... ؟

ثم قال :

— اذا كانت انجلترا تريد أن تجرنا معها الى هذه الحرب ، فلتعترف لنا أولا بالاستقلال .

وقال رشدى باشا :

ـ لم يفت وقت ذلك .

واتفق الثلاثة على السعى لتعترف انجلترا باستقلال مصر « وتكفل لها مصالحها الى حد أن نعاونها بدخولنا معها الحرب اذا كان هذا ضروريا » .

ولم يقبل ممثلوا بريطانيا ذلك وفشل العرض .

ودلالة هذا كله أن فريقا قويا من المصريين كان يسعى الى استقلال مصر على أساس تنظيم علاقة مصر بانجلترا وحماية المصالح البريطانية فى مصر ومن هذا الفريق كان حسين رشدى وسعد زغلول وعدلى يكن ولطفى السيد .

هذا بينما أخذ الضعف يلم بالحزب الوطنى بعد هجرة زعيمه الاضطرارية الى أوربا وما نجم عن ذلك من فتور بدأ يخيم على شعور المصريين . فالعمد أخذوا يستعينون فى قضاء مصالحهم بالانجليز وزادوا تقربا منهم ، وسياسة الوفاق قد زادت المصريين فتورا الا أن جذوة الكفاح فى أعماق المصريين بقيت تتلظى تحت التراب المتراكم عليها وكل يوم تزيدها مساوىء الاحتلال والخديو ضراما ، والأحداث تتوالى بعد حادث دنشواى لتضاعف من غضب المصريين على الاحتلال كالعودة الى قانون المطبوعات.

القديم للحد من حرية الصحافة وحرية الرأى واضطهاد الوطنيين وتقديمهم للمحاكمة والحكم عليهم بالسجن ومحاولة مد امتياز قناة السويس .

وحين قامت الحرب العالمية الأولى كان هذا الفريق الذى يرى ضرورة التعاون مع الانجليز وتنظيم علاقة مصر بانجلترا على أساس الاعتراف باستقلال مصر ، يتبوأ مركز الصدارة فى حياة مصر .

ثم كانت الحرب وفرض الحماية البريطانية على مصر وزوال السيادة التركية وخلع الخديو وفشل الحملة التركية على قناة السويس عام ١٩١٥ وثورة العرب على تركيا ثم هزيمتها فى الحرب فلم يعد هناك من يرى ربط المسألة المصرية بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ وانهار بذلك آخر أساس لنظرية الحزب الوطنى فى علاج المسألة المصرية ولم يبق غير مبدأ « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » . وأتيح للفريق الآخر أن يمسك بزمام الموقف ويسير على طريقته الخاصة لتحقيق استقلال مصر .

* * *

معالم الجيل

معلم الجيـل

«ان تحريك طاقات الشعب الى العمل لا يجب »
« أن تتم عن طريق اغراق الجماهير فى الامل . ان »
« التغيير الكبير بطبيعته يصاحبه تطلع بعيد المدى »
« الى الاهداف المرجوة من النضال ، لكنه من ألزم »
« الواجبات فى تلك الفترة أن تتضح أمام الشعب »
« بجلاء صعوبة الوصول الى الاهداف المرجـوة . »
« ان مجرد التغيير الثورى فى أوضـــاع المجتمع »
« القديم لا يحقق أحلام الجماهير ، ولكن الجهـود »
« المتواصلة هى وحدها القادرة على الوصول الى »
« الاحلام » .

« وليس من حق أحد فى هذه المرحلة أن يخدع »
« الجماهير بالمنى ، وانما تقتضى الامانة الثورية أن »
« تكون لدى الجماهير صـورة كاملة لمسئولياتهـا »
« بلوغا لآمالها » .

الميثاق

كانت الشخصية المصرية تتهيأ لتعود الى ذاتها التى تاهت فى غيوم العثمانية واستئثار الاتراك بالحكم والسلطان وكان الفكر المصرى يستقبل معان جديدة كانت غريبة عليه فى البداية حتى أخذ يتمثلها ويستوعبها ويربطها بذاته لتصدر فى النهاية مصرية خالصة .

وكان لطفى السيد هو المعلم الذى عمل على أن يهدى المصريين الى ذاتهم ويعرفهم بتلك المعانى الغريبة عليهم ويرشدهم الى النمط الواجب فى حياتهم ووجودهم .

وككل معلم امتدت رسالته لتسع آفاق الحياة جميعا لأنها تهدف الى تكوين الفرد ورقى الجماعة .

لم يشغل نفسه بالسياسة وهو الناطق بلسان حزب وكاتبه الأول الا بقدر ماكانت هذه السياسة تمثل مبدأ يدعو اليه ورسالة يتمثلها عقله ليصدر بها الى الناس فى اطارها الفلسفى والعلمى والمنطقى حتى يدرك الناس كيانهم الحقيقى ومالهم وما عليهم وهم له واعون .

كان معلما بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، ولم تكن الجريدة منبر آرائه فحسب بل كانت دار الجريدة منتدى ثقافيا رفيعا يؤمه الشباب ليستمعوا الى معلم الجيل وهو يحدثهم حديثا

جديدا على أسماعهم ، وليستمعوا الى غيره من « كبار الأساتذة والمحامين المصريين » .

وكان هذا المنتدى يتحول فى بعض الأحيـــان الى « مدرسة جامعة » يطالع فيها طلاب المدارس العليا مالا يطالعون فى مدارسهم أو يعز عليهم من أساتذتهم ، فقـــد حدث أن كان ناظر مدرســـة الحقـــوق حينذاك انجليزيا ، وأســـتاذ القانون المدنى فرنسيا من راسبى ليسانس الحقوق فى باريس ، فأخذت الجـــريدة « تطالب الحكومة أن تستبدل به غيره فلم تجب الى طلبهـــا » فدعا لطفى السيد « الأستاذ أحمد عبد اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار الجريدة ، فقبل هذه الدعوة ، وكان يؤم دروسه الكثيرون » .

وهكذا أصبحت الجـــريدة وهى الصحيفة التى تمثل حـــزبا سياسيا « مدرسة جامعة » لطفى السيد أستاذها الأول .

وغلب عليها طابع لطفى السيد الفـــكرى والفلسفى والمذهبى فلم تعد تمثل أفكار أصحابها بقدر ما تمثل أفكار محررها الأول ، وغدت مدرسة فكرية لها أفكارها ومثلها التى تتحمس لها وتجمع من حولها الرواد والأنصـــار والمؤيدين ـــ وترك لطفى السيد فى جيله وفى الجيل الذى تلى جيله من الأثر ما لا يقاس اليه أثر أية مدرسة فكرية أخرى سواء كانت هذه المدرسة لفرد أو لصحيفة

من الصحف أو جماعة من الجماعات ـ فلطفى السيد هو الذى فلسف الحركة الدستورية وخرج بها من حيز الأفــكار المجردة والمطالب المحدودة الى حيز المعانى الشاملة للقيم الدستورية وأنظمة الحكومات والعلاقة بين الحكام والمحكومين ، ولطفى السيد هو الذى فلسف أيضا حركة الاصلاح العام فأقامها على قواعد ثابتة من النظريات العلمية وحاجيات المجتمع والتطور الطبيعى لعمليــة التقدم والارتقاء ، وهو أول من نادى بتوجيه المدرســة والتعليم توجيها تربويا يتفق مع تطور المجتمع المصرى ومطالبه ، وهو الذى رعى على صفحات الجريدة حركة تحرير المرأة وخرج بها من حيز الدعوة الى حيز العمل والتطبيق وهو الذى أخذ يدل الناس على مواطن الجمال والحياة المتمدينة الراقية فى حدود البيئة وتقاليدها والدين وتعاليمه .

وهذه المدرسة الفكرية الشامخة التى رادها لطفى السيد هى التى جمعت حولها الأنصــار والأعوان الذين ساروا على هديها ودعوا بدعوتها وكان لهم فى نهضة مصر المعاصرة أعظم الأثر .

وقد كان من الممكن ألا يترك لطفى السيد هذا التأثير الفكرى فى جيله والجيل الذى تلى جيله ، لو لم يكن بطبعه رائدا ومعلمــا أكثر منه صحفيا وسياسيا ، فانا لانجد رجلا أو صحيفة من الصحف المصرية قبل الحرب العالمية الأولى عنيت بالمجتمع المصرى عنــاية

لطفى السيد والجريدة به ، ولا نعلم أن أحدا شغل نفسه بتربيةهذه الأمة وتعليمها وارشادها واصلاح شئونها كما شغل لطفى بذلك منذ قيامه على تحرير الجريدة وبعد أن تركها ، فشغل بترجمة آثار أرسطو حتى اذا أصبح أول مدير لأول جامعة تنشأ فى البلاد فأخذ يرعى خطاها وخطى الناشئة فيها حتى استوت على طريقها المأمول . ولا نعرف أستاذا راد تلاميذه ورعى خطاهم وأرشدهم كما كان لطفى السيد مع رواده وتلاميذه ، ولا نسمع عن صحفى قد أفسح صحيفته للنابغين من ناشئة جيله ما أفسح لطفى السيد لهذا الشباب النابه الذى التف حوله والذى قدر له فيما بعد أن يقود الحركتين الفكرية والسياسية فى تاريخ مصر المعاصر ، ولم يكن هناك منتدى ثقافى يسترشد فيه الشباب بأئمة الفكر والقانون والأدب والسياسة والاجتماع كمنتدى الجريدة فى تلك السنوات الثمان التى عاشتها .

فالجريدة قد أصبحت مدرسة فكرية لها روادها وتلاميذها وذلك بفضل لطفى السيد الذى خرج بها من النطاق الحزبى الضيق الى آفاق أرحب من التوجيه والارشاد والتثقيف فأصبح بحق معلم الجيل وأصبحت الجريدة مدرسة الجيل الجديد .

وتتسم تلك المدرسة بسمتين بارزتين ، سمة التجديد وسمة التعقيل والترشيد ، مصبوغتين بصبغة الحرية ، تلك الحرية التى

جعلهـــا لطفى السيد قاعدة لكل نتاج فكرى ولكل اصـــلاح عام ولكل علاقة بين الفرد والمجتمع وبين الفرد والحكومة واستقام له منها مـــذهب دعاة « مذهب الحريين » "Liberalism" نسبة الى الحرية مفضلا هذه التسمية على غيرها من المسميات الأخرى كقولنا مذهب « الحرية » أو مذهب « الأحرار » .

ويفصل لطفى السيد مذهب الحريين فيقول ان الأمة تناوبتها فى أزمان التاريخ حكومات مختلفة متنوعة المقاصد متباينة المظاهر والنتائج كان من أثر اختلافها ايجاد المذاهب السياسية لكل مذهب فريق من الكتاب يؤيده وطائفـــة من الناس تنتصر له كل يتعصب لمذهبه ويرى فى تحقيقه نفع الكافة .

ويرى أن القاعدة فى كل مذهب من المذاهب السياســية هو المنفعة ، فحب المنفعة هو الدافع النفسى الذى يدفعنا الى العمــل ، ويختلف الناس فى تقدير منفعتهم الشخصية كما يختلفون فى تقدير منفعتهم العامة ، ومن هذا الاختلاف فى تقدير المنفعتين الشخصية والعامة يكون اختلاف المذاهب السياسية لدى الأمم .

ونقصد بالتجديد أن أكثر ما دعا اليه لطفى السيد كان جديدا بالنسبة لما درج عليه العصر من نظــم وعوائد وعقائد وتقاليــد ، فالدعوة الى القومية المصرية كانت جديدة بالنسبة لما درج عليــه

الناس من تعلق بالجامعة الاسلامية أو ولاء لدولة الخلافة ، حتى الدعوة الى الدستور ولو أنها ترجع عند المصريين الى ما قبل الثورة العرابية ، بدت فى تلك الآونة دعوة جديدة فقد كان جل اهتمام الحركة الوطنية موجها الى المطالبة بالجلاء ولم يبد الوطنيون اهتمامهم بالدستور والدعوة اليه الا بعد ما بدأت الجريدة دعوتها الدستورية وكانت الجفوة قد وقعت بين الوطنيين والخديو بعد سياسة الوفاق .

والدعوة الى السفور وتعليم المرأة كانت بدورها دعوة جديدة ولو انها سبقت قيام الجريدة ، الا أن الجريدة دون معاصراتها من الصحف الأخرى هى التى أخذت بناصرها وشجعت الكتابة عنها بفضل ايمان لطفى السيد بحرية المرأة وحقوقها ، هذا الايمان الذى لازمه بعد ذلك وهو يفسح لها مكانا فى الجامعة بين الطلاب تشاركهم فى تلقى العلم والمعرفة والتخصص فى الدراسات العليا . وكان من الجديد حينذاك أن يدعو لطفى السيد المرأة الى محاضرات عامة : محاضرة ومستمعة بنادى الجريدة وان قصرها على النساء وحدهم ، الا أن هذا العمل فى ذاته كان خطوة جريئة فى تطور المجتمع المصرى ، فقد خرج بالمرأة من نطاق البيت المحدود الى النطاق الخارجى الواسع ، وبث فيها نوعا من الثقة بالنفس على مواجهة المجتمعات العامة ، كما أفسح لها من صفحات الجريدة

فكتبت ملك حفنى ناصف المعروفة « بباحثة البادية » وكتبت مارى زيادة المعروفة « بمى » كما كتبت « نبوية موسى » وكانت فتاة ناشئة أتيح لها فيما بعد أن تكتب صفحة من أنضر الصفحات فى تاريخ التعليم وتعليم الفتاة بالذات ، . ولبيبة هاشم . وكانت من الرائدات الأوائل فى ميدان العمل الصحفى .

وكذلك كانت النظرة التى تناول بها لطفى السيد مسائل التعليم فى مصر نظرة جديدة بالنسبة لوقتها فقد دعا الى الأخذ بوسائل التربية الحديثة والاهتمام بها ، فالتعليم بوسائله وطرائقه السائدة لا يفى بالغرض المنشود منه لخلق مواطن صالح قادر على مواجهة الحياة والتكيف معها ، وخرج لطفى السيد من ذلك بمذهب فى التربية رآه قمينا بأن يفيد منه التعليم فى مصر ، جديرا باعداد الناشىء فى المدارس المصرية اعدادا صالحا ، ويقوم هذا المذهب التربوى على أن الانسان كما يقول جان جاك روسو خير بطبعه وانه قابل للتربية والتهذيب وعلى الأمة أن نعد أبناءها على هذا الأساس ، ويتحدد بذلك الغرض من التربية فهو الحصول على التوازن الخلقى والنفسى فى الأمة وفى الفرد ، وبالتربية والتعليم يتم التوازن بين العقل والجسم فينموان معا وبقدر واحد تقريبا ، فالأمة التى تعنى بالعلوم العقلية وحدها مهملة ، والأمة التى تعنى بالفنون الجميلة وحدها مهملة ... وهكذا ، وعلينا أن

نختار من مذاهب التربية أكثرها موافقة لحالنا وأدناها « لتحقيق المثل الأعلى للرجل فى خيالنا المصرى » فيكون هدف التعليم اعداد الناشىء للقيام بوظيفة رجل والاضطلاع بواجب الحياة لا أن يكون موظفا فى الحكومة ، هذا من الناحية الفردية ، أما من الناحية الاجتماعية فالغرض العام للتعليم هو صبغ الناشئة بصبغة واحدة حتى يصبحوا بقدر الامكان متشابهين فى الأخلاق والميول والعادات فقد فطر الناس مختلفين فى الأمزجة والملكات مندفعين الى الحرص والأنانية ، وهذا الاختلاف يجعل بينهم فروقا عظيمة ، لا يمكن معها التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، وهدف التعليم أن يقلل من تلك الفروق ويكثر من المشابهات بين الأفراد ، فاذا ضاقت بينهم دائرة الفروق سهل عليهم أن يكونوا مجموعا متشابه الأجزاء يكاد يرى بعين واحدة ويسمع بأذن وأحدة ، ويحس بقلب واحد وذلك هو معنى الحياة القومية التى ينشدها كل من يريد أن يحمل الأمة على الأخذ بأسباب سعادتها .

وحتى تؤدى التربية والتعليم فى مصر وظيفتهما هذه لابد وأن « تعملا على انماء حرية الفكر والاستقلال فى العمل ، بعكس ماجرت عليه سياسة الاحتلال فانها تعمل على حصر التعليم فى دائرة ضيقة وهى اعداد المتعلمين فحسب للعمل فى ادارات الحكومة عملا آليا ، كما تحذر من أن يتطور التعليم فى مصر تطورا يقوم على انماء الحرية الفكرية والاستقلال فى العمل » .

وفى كل ميدان جال فيه الطفى السيد بقلمه وفكره وأحاديثه كان يرمى الى خلق مجتمع جديد فدعا الى كل ما يدفع بهذا المجتمع الى التطور المنشود وكانت دعوته لذلك جديدة بالنسبة لما درج عليه جيله وعصره .

كانت هذه هى سمة التجديد فى دعوة لطفى السيد وفى مدرسته الفكرية ، تلك الدعوة التى لم تتجاوز حدود التفكير الى العمل الا فى الجيل التالى وعلى يد الرواد الذين التفوا حول هذه المدرسة واعتنقوا أفكارها ومبادئها ، حتى استكملت قوامها فيما قامت به الثورة الاخيرة من تطوير الحياة فى مصر ذلك التطوير الذى رآه لطفى السيد يتحقق على يد أحفاده . أما سمة التعقيل والترشيد فى دعوة لطفى السيد فتعنى اخضاع الدعوة لهدى العقل والمنطق على ضوء المنفعة الذاتية لمصر وحدها ، فالمنفعة كما يراها لطفى السيد هى الأصل فى اختلاف المذاهب السياسية ، وهى الأصل فى قيام الحكومات التى تضطلع بحماية الأفراد فى حريتهم وحياتهم وأموالهم فاذا لم تقم بهذا فقد غبنت الناس فى منفعتهم منها ، والمنفعة هى الأصل أيضا فى اجتماع الناس فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما ان يجتمعا لمجرد « قرابة الجنس أو وحدة فى الدين » ، وهى الأصل فيما يقوم من علاقات بين الدول لذلك كان اعتماد مصر على فرنسا لنصرة القضية المصرية خاطئا لأن

فرنسا لا تبغى غير مصلحتها وقد حققتها بالاتفاق الودى عام ١٩٠٤ مع بريطانيا ، وكذلك اعتماد مصر على تركيا فان تركيا قد تخلت عن مصر ، ولم تفد مصر من تبعيتها لها نفعا ، بل أن المنفعة هى الأصل فى مذهب الحرية فمذهب الحرية يحمى الحكومة من شر استبدادها ويكفل الانتفاع لكل فرد فى الأمة فهو أحسن ضمان لمنفعة الطرفين معا .

وقد سار لطفى السيد فى دعوته وفى كل ما ذهب اليه ، سيرا واقعيا يتفق مع العقل والمنطق لينتهى من ذلك باقناع الناس بأن وجه المنفعة فيما يقول وفيما يدعو اليه وهذا هو ما نعنيه بالتعقيل والترشيد فالتعقيل أى اخضاع الدعوة لهدى العمل والمنطق لابد وأن يسبق عملية الترشيد التى ترمى الى قبول الفكرة واعتناقها .

وترجع هذه النزعة الى الترشيد عند لطفى السيد الى ما فطر عليه من طبيعة المعلم ، فقد كان معلما بطبعه . كما ترجع الىماتركته ثقافته القانونية والفلسفية فى تكوينه العقلى والفكرى من اتزان وهدوء وايمان بالتفكير الموضوعى المجرد ، كما ترجع أيضا الى تأثره العظيم بالثقافة الاوربية الحديثة والثقافة اليونانية القديمة واحساسه الكامل ببيئته وتقاليد وطنه وتاريخ بلاده فعمل على التوفيق بين الفكر الأوربى والفكر المصرى ، ليكون نتاج ذلك كله تفكيرا قوميا خالصا غير متخلف عن نظائره فى الغرب .

أما ثقافة لطفى السيد القانونية فهى أصل دراساته واما ثقافته الفلسفية فانها تستمد اصولها من منابع ثلاثة ، الفلسفة العربية الاسلامية وقد تأثر منها بفلسفة ابن رشد وابن سينا من فلاسفة المشرق العربى وابن حـزم من فلاسفة الأندلس ، ثم الفلسفة اليونانية وكان أعظم ما تأثر به منها فلسفة أرسطو حتى دفعهاعجابه بهذا الفيلسوف اليونانى الى ترجمة كتبه الى العربية نقلا عن ترجماتها الفرنسية وهى كتاب « الطبيعة » وكتاب « الكون والفساد » وكتابان فى الأخلاق بعنوان « الى نيقوماخوس » وكتاب « السياسة » وأخيرا الفلسفة الأوربية الحديثة ، وعلى قدر ما كان اعجابه ـ كما يقول ـ بارسطومن الفلاسفة الاقدمين كان اعجابه بالفيلسوف الألمانى « كانت » من الفلاسفة المحدثين ثم بفولتير وروسو من الكتاب الفرنسيين ، والفيلسون الانجليزى « جون ستيوارت مل » صاحب « مذهب المنفعة » .

على أننا نلاحظ أن أعظم ما تأثر به لطفى السيد من مذاهب هؤلاء الفلاسفة والمفكرين تأثره بمذهب جون ستيوارت مل « فى المنفعة » ومذهبه « فى الحرية » وكذلك تأثره بمذهب أرسطو فى السياسة وفى الأخلاق .

فمذهب المنفعة « لجون ستيوارت مل » هو الذى اتخذه لطفى

السيد أساسا لتفكيره السياسى والاجتماعى . فالمنفعة هى الدافع الأصيل للعلاقة بين الدول بعضها ببعض وبين الحكومة والأفراد أو بين الافراد فيما بينهم .

ومذهب الحرية "Liberalism" الذى نادى به جون ستيوارت مل أساسا للنظام الاجتماعى ، هو الذى اتخذه لطفى السيد أساسا لما دعاه « مذهب الحريين » ، وكانت دعوته لهذا المذهب فيما نعلم أول دعوة من نوعها فى مصر حينذاك لفلسفة النظامين السياسى والاجتماعى للدولة .

أما الاثر الذى تركه أرسطو فى تفكير لطفى السيد فيبدو واضحا فى دعوته للديمقراطية وحكم الشعب ونظرته العامة للاخلاق . فقد ذهب أرسطو على خلاف أستاذه افلاطون الى اعتبار أن الدولة المثالية هى الدولة التى يقوم الحكم فيها على الشورى وليس غير حتى وأن كان الحكم من هذا النوع المستنير الذى يصدر عن الملك الفيلسوف كما يتخيله افلاطون فى جمهوريته .

فاذا قارنا ما ارتآه أرسطو أساسا للدولة المثالية بما كان ينادي به لطفى السيد على صفحات الجريدة أساسا للحكم فى الدولة لا نجد فارقا بين الاثنين ، بل ان العناصر التى جعلها أرسطو أساسا لحكم الشعب هى نفس العناصر التى نادى بها لطفى السيد

فان أرسطو كان يرى أن الحكم القائم على الشورى يستهدف، الصالح العام أو صالح الجمهور وبذلك يتميز عن الحكم الطائفى الذى يستهدف صالح طبقة واحدة أو صالح فرد معين ، ثم أن حكم الشعب يستمد سلطانه من الشعب وفقا لقوانين وتنظيمات عامة وليس لأوامر تحكمية .

وكذلك لطفى السيد فالحكم كما يراه يجب أن يكون لصالح المحكومين والحكم تنظمه قوانين وتشريعات أو دستور يصدر عن الأمة ، والحكم الدستورى هو الحكم الذى ترضاه الأمة أما الحكم الاستبدادى فانه يقوم على وهم كبير يفسره بأنه أثر من آثار عبادة البسالة أو القوة التى خلفها الماضى فى نفوسنا يوم كانت البطولة تقاس بالقوة الجسدية أو الفتح والسلطان .

وتتأثر نظرة لطفى السيد للاخلاق او مذهبه الاخلاقى بماذهب اليه أرسطو من التفرقة بين السيد والعبد ، فالعبد كما يراه أرسطو نوع من أدنى المخلوقات ولد ضعيفا وغير كفء لأن يحكم نفسه ، ولعل فى هذا الحكم الذى أصدره أرسطو تبريرا لنظرية الرق التى كانت سائدة فى عصره ، ولكن هذه النظرة نراها واضحة وبصورة أخرى فيما كتبه لطفى السيد عن الاخلاق ، فالرذيلة كما يراها لطفى السيد ما هى الا أثر من آثار الاستبداد فى نفوس الناس ،

فالرياء مثلا رذيلة تستشرى فى البـــلاد الاستبدادية التى يتوقف نجاح الفرد فيها مهما كان كفؤا على رضاء السلطان وأعوانه . فهو الوسيلة الى ارضاء السلطان وهى رذيلة تهدد حق الفـــرد وحريته الشخصية ، ولذلك فان الرياء فى البلاد التى يتمتع فيها الناس بحريتهم الشخصية يكون وسيلة عقيمة لدفع المضرة أو جلب المنفعة ، بل أن ذلك الرياء يكون مسبة للفرد وامتهانا للكـــــرامة الانســـانية .

ولذلك فان لطفى السيد لايسلم بما ذهب اليه ارسطو وهو « ان الناس خلق بعضهم ليكون حاكما ، وخلق بعضهم ليكـــون محكوما » ويرى أن أرسطو قد ذهب هذا المذهب من ملاحظته الشــخصية لاخلاق قومه واخلاق جيرانهم ، ويقول أن ملاحظة أرسطو هذه لاتكفى وحدها لتقرير مثل هذه القاعدة ، فان الله قد فطر الناس على فطرة واحدة ، أو متقاربة الفروق جـــدا ، وانهم جميعا قد فطروا على الحرية الشخصية ، والأنانية فى الاحتفاظ بمقومات شخصيتهم ، فمن أين لهم اذن رذيلة الرياء الا اذا كان مردها ضبط النفس ، والخشية من غضب الله ، وفقدان الشخصية المســتقلة .

واذا كان لطفى السيد قد ناء بما ذهب اليه أرســـطو تبريرا لنظرية الرق فانه قـــد سلم بأن الرذيلة لا ينميها غـــير الاستبداد

وفقدان الحرية الشخصية وهى أثر من آثار الرق كما يراها أرسطو وأثر من آثار عبادة البسالة ، كما يراها لطفى السيد ، فعبادةالبسالة ـ كما يقول ـ ليست الا نوعا من الاسترقاق ، ومثل الرياء ، مثل البغى والكذب والمباهاة بالجاه أو التقرب من ذوى السلطان والاستكانة والضعف وعبادة البسالة أو عبادة القوى القاهرة كلها رذائل تنمو فى ظل الاستبداد وفقدان الحرية الشخصية .

والى جانب الأثر الذى تركته الثقافتان الشرقية والغربية ولا سيما الثقافة الفلسفية قديمها وحديثها ، فى تفكير لطفى السيد وتكوينه العقلى فان للبيئة المصرية من الاثر فى نفس لطفى السيد وتفكيره وتكوينه العقلى أيضا ما لايقل عن أثر هذه المقومات الفلسفية والثقافية لديه .

وقد كان للبيئة كما قلنا أثر كبير فى تفكيره السياسى وتطور هذا التفكير كما رأينا باتصاله بالثقافة الغربية وسيادة الدولة القومية وحرية الفرد فى أوربا ، أما الأثر الاجتماعى الذى تركته البيئة فى نفسه فانه يستمد اصوله من فهمه العميق لتاريخ بلاده وتقاليدها وعاداتها واحساسه بمصريته احساس الفلاح الذى عانى من جور الترك ومظالمهم واستبداد الاسرة الحاكمة ، واحساس المثقف الذى عرف عيوب قومه فعمل على اصلاحها وأدرك محاسن

الحضارة الاوربية فدعا اليها وآمن بالتطور الوئيد فكره الثورة وعاف الانقلاب المفاجيء ، ولا ننسى ما كان لفشل الثورة العرابية من تأثير على تفكير هذا الجيل تأثيرا استمر يسيطر على اتجاهات البلاد السياسية حتى كانت ثورة الجيش عام ١٩٥٢ .

وأدركت انجلترا قوة هذا التأثير فى نفوس هذا الجيل فكان أول ماترهبهم به الالتجاء الى القوة العسكرية ، فعلى الرغم من وجود قوات الاحتلال ، وسيطرة الموظفين الانجليز على الادارات الحكومية كانت انجلترا تأمر اسطولها بالتحرك الى المياه المصرية عند كل أزمة بينها وبين مصر، لذلك أخذ الجيل المسألة المصرية بالهوادة واللين ولجأ الى المفاوضة فى الوقت الذى كانت البلاد تغلى فيه بالثورة .

وينعكس احساس لطفى السيد بالتاريخ المصرى انعكاسا قويا فى دعوته للمصرية دعوة اتجهت اتجاها بينا على يد تلاميذه الى احياء الفرعونية حتى كاد هذا الاتجاه يغطى على صبغة العروبة التى اصطبغت بها مصر منذ الفتح الاسلامى ، وبرز هذا الاتجاه قويا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وظهر أثره فى كثير من الاتجاهات الأدبية فكتب هيكل قصة « ايزيس وحورس » وضمنها كتابيه « فى أوقات الفراغ » و « ثورة الأدب » وثارت مناقشات عديدة على صفحات الجرائد وخاصة فى « السياسة

الاسبوعية » بين أنصار الفرعونية والداعين لها وأنصار العروبة والداعين لها ، على أن الدعوة الى الفرعونية لم يتح لهـــا أن تستمر طويلا فسرعان ما عاد انصارها والداعون لها الى الاغتراف من مناهل الفكر العربى والاسلامى فأرخ هيكل لبعث الاسلام فى كتبه الأربعة التى كتبها عن « حياة محمد » و « الصديق أبوبكر » و « الفاروق عمر » و « منزل الوحى » وكتب طه حسين « على هامش السيرة » و « الفتنة الكبرى » و « على وبنوه » وكتب العقاد دراساته للعبقريات الاسلامية .

الا أن الدعوة الى الفرعونية تلك الدعوة التى حملها تلاميـذ الجريدة وروادها لم تكن هى ما عناه لطفى السيد بالدعوة الى المصرية وانما كان يعنى ان المصرى مهما انتسب الى الفراعنة أو العرب أو الترك أو المماليك فهو مصرى أولا وأخيرا ينتسب الى وطن له معالمه التى تميزه عن غيره من الأوطان وله تاريخه الطويل الممتد عبر الزمن ، فمصر الفرعونية هى مصر العربية ومصر تحت حكم الفراعنة أو العرب أو تحت المماليك او الاتراك هى مصر لم تتغير الا بما يقتضيه تطور التاريخ المستمر .

فالدعوة الى المصرية كما عناها لطفى السيد هى الدعوة الى القومية المصرية والاعتزاز بالوطن المصرى لكل من أقام فيه أو

انتسب اليه ولم تكن هذه الدعوة تعنى مطلقا هجر المعالم العربية التى تمثلت المصريين الى احياء المعالم الفرعونية ولم يتعد احساس لطفى السيد بالفرعونية احساسه بكل مفاخر التاريخ المصرى عامة فاعتزازه بالتاريخ الفرعونى كاعتزازه بالتاريخ العربى ، « فنحن فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ونحن مماليك مصر وأتراكها ، نحن المصريون دائما لنا تاريخ قديم طويل ذو مراتب وأقدار اتصلت سلاسله بحلقات متينة فأصبحت سلسلة واحدة أولها قبل التاريخ وآخرها هذه الحلقة التى نقطعها » .

فالوطن فى ذهن لطفى السيد هو الأرض ذات المعالم والتاريخ المحدد ينتسب اليها قوم يربطهم الولاء لتلك الأرض والمنفعة التى تعود عليهم من ارتباطهم بها وارتباطهم ببعضهم البعض مهما كان أصله وجنسه مادام قد تمثل اعراف الوطن وتقاليده ومأثوراته وكان له ولاؤه فلم يعد لغيره من الأوطان ولاء يزاحمه فى قلبه .

فاذا كانت المنفعة هى الرباط الذى يربط القوم بالقومية التى ينتسبون اليها فان الولاء للقومية العربية كالولاء للقومية المصرية المصرية مرده الخير الذى يعود على الجميع .

ولقد تاهت القومية العربية فى ظلال الأخاء الاسلامى ردحا من الزمن حتى اذا جاء الأتراك بعصبيتهم وعنصريتهم فسادوا العالم

العربى ، بدأ العرب يحسون هذه التفرقـة بينهم وبين الأتراك ولكنهم فى ولائهم للرابطة الاسلامية وقداسة الخلافة أغضوا عن مساوىء الترك ابقاء على دار الاسلام ، فلما استيقظوا على واقعهم كانوا أشبه بالتائه وسط ظلام كثيف فمنهم من نادى باستقلال الولايات العربية استقلالا داخليا مع الابقاء على سيادة دولة الخلافة ومنهم من راح على حذر يحيى معالم تراثه القومى القديم ، ومنهم من تأثر بتطور الدولة القومية فى أوربا فأخذ يعمل على احيائها فى بلاده ، ولم تخرج الفكرة العربية من هذه التيه الا بعد الحرب العالمية الثانية ثم استقامت على يد جمال عبد الناصر .

أما احساس لطفى السيد ببيئته وتقاليد بلاده وعاداتها فيبدو فى تقصيه لعيوبها الاجتماعية ودعوته الى نبذ هذه العيوب من ناحية والأخذ بمحاسن التربية الغربية والخلق الغربى وأسباب النهوض فى المجتمع الأوربى بما يتفق مع تقاليد مصر وبيئتها ودينها فقد كان لطفى السيد رغم نزعته القوية الى التجديد والاصلاح الاجتماعى لا يحب أن يأخذ الاصلاح بالطفرة ولا يحبذ الثورة الاجتماعية ويميل الى المحافظة والاعتدال فى كل أمر يتصل بأمور الدين .

وهكذا كان تفكير لطفى السيد جديدا على المصريين فاتخذ

منهم موقف المعلم يعرفهم بوجودهم وكيانهم ويدعوهم ألا يذيبوا شخصيتهم فى غيرهم فيدلهم على معنى الاستقلال : اســـتقلال الشخصية واستقلال الوطن ويقول لهم أن حكم بلادهم يجب أن يكون لهم ويعمل على تخليصهم من رواسب الماضى السياسـية والاجتماعية ويرشدهم الى الطريق السوى للخلاص من هــذه الأوضار حتى تستقيم لهم الحياة ويستقيم وجــودهم مع حياتهم الحقيقية .

وظل على هذا النهج سبع سنوات : من سنة ١٩٠٧ الى ســنة ١٩١٤ كانت الشخصية المصرية تتبلور خــلالها حتى كشفت عن صفائها فى ثورة عام ١٩١٩ .

وبعد تلك السنوات القصار ختم لطفى السيد حياته الصحفية. ولكنه لم يختم حياته كمعلم أخذ على عاتقه تهيئة هذا الجيل الذى راده على صفحات الجريدة لينهض بالواجب الملقى على عاتقه فى بناء حياة البلاد السياسية والاجتماعية .

ويقول لطفى السيد فى أسباب اعتزاله للصحافة والسياسة أن سعيه مع حسين رشدى وعدلى يكن لتنظيم علاقة مصر بانجلترا على أساس الاعتراف باستقلال مصر بعد أن فرضت انجلترا على مصر اجراءات تجعلها فى صف الدول المحاربة قد باء بالفشل .

« وكنت ، وقتئذ ، أتردد على عدلى باشا لأعرف الى أى حد وصلت مسألتنا ، وذات يوم التقيت به فوجدته متشائما وبادرنى بقوله :

ـ ليس عندى أمل فى نجاحنا .

فخرجت من عنده مكتئبا كاسف البال ، وزارنى بعد أيام نجيب باشا غالى وكيل الخارجية فى ذلك الحين فسألنى قائلا :

ـ ما هو الأمر الذى تتردد من أجله على عدلى باشا ؟ ..

فأفضيت له بما عندى ، وقلت :

ـ ان الأمر قد انتهى بالفشل ، ولهذا سأكسر قلمى ، وأذهب الى بلدى ، واعتزل السياسة .

وفى اليوم التالى كلمنى ستورس بالتليفون وقال لى :

ـ لا تيأس . .

ثم كلمنى بعد دقائق نجيب غالى باشا يدعونى الى العشاء عنده لنجيب باشا :

أنا وستورس ـ وكان اللورد كتشنر قد عين وزيرا ـ فقلت

ـ انى أقبل الدعوة بشرط أن يحضر معنا عدلى باشا . فأجابنى الى ذلك .

واجتمعنا نحن الأربعة فى بيت نجيب باشا وحدثنا ستورس حتى ظننا أن النجاح فى متناول يدنا ، فوضعنا فى بيت نجيب باشا صورة لمعاهدة بيننا وبين بريطانيا العظمى تتضمن اعترافها باستقلالنا واعترافنا بمصالحها فى مصر وفى قنال السويس .
كل ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٤ وكان الأمل يحدونا جميعا .

ذهبت بعد أيام قلائل الى عدلى باشا بديوان الخارجيةفوجدته قد يئس نهائيا من تحقيق مطلبنا ، فخرجت من عنده وأنا مصمم على اعتزال السياسة ، ثم قدمت استقالتى من رئاسة الجريدة لرئيسها محمود سليمان باشا وسافرت الى بلدتى « برقين » وكان هذا آخر عهدى بالعمل الصحفى » .

* * *

لم يكن هذا نهاية العمل الصحفى بالنسبةللطفى السيد فحسب بل كان نهاية دور وبداية دور جديد من حياته وكفاحه فى سبيل مصر . نهاية دور كان فيه معلما ومرشدا وبداية دورا كان فيه معلما أيضا ولكنه لم يكن مرشدا بقدر ما كان بناء قام بتنفيذ ما كان يدعو اليه .

عمل مديرا لدار الكتب وخلف فى رياسته لها الدكتور شاده مديرها الالمانى ، وبدأ يترجم الى العربية آثار أرسطو ، ثم كان فى

الصفوف الأولى للحركة الوطنية بجانب سعد زغلول وعدلى يكن وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود وعبد العزيز فهمى .

وحين بدأ الانشقاق بين رجال الحركة الوطنيـــة عاد الى دار الكتب وشغل بأمرين : ترجمة مؤلفات أرسطو وانشاء الجامعـــة المصرية الحكومية وكان وكيلا للجامعة المصرية القديمة الى جانب عمله بدار الكتب .

وأصبح لطفى السيد أول مدير للجامعة المصرية . ثم كان وزيرا للمعارف عام ١٩٢٨ ، ويقول فى هذا :

« وكان من حظى أن أتولى وزارة المعارف ، وهى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف اليه من خدمة الأمة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال فان التعليم هو الأساس الذى يبنى عليه تحقيق الأطماع القومية ، ولو أن العظمة القومية التى تبغيها مصر تنال بالجهل ، وبتفكك الروابط القومية الدالة على عدم التربية لكان ذنبا علينا ان نفـــكر فى حال التعليم والأخلاق عندنا ، ولا جدال فى أن العلم ضرورى لتقدمنا بل هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار فى معركة الحياة للفرد والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام هذه المدنية الحديثة ، كما أن تربية الأخلاق هى أساس قوة الأمم » .

وعاد الى الجامعة مرة أخرى يسوس أمورها من جديد بعد استقالة وزارة محمد محمود ويقول فى ذلك :

« فارتحت لاستئناف نشاطى بين أبنائى شباب الجامعة ، وبين زملائى أساتذتها واغتبطت كل الاغتباط لأنى أمضيت عهدا غير قصير فى العمل الجامعى ، وألفت هذه البيئة الجامعية التى تقوم على الاخلاص للعلم والتضحية فى خدمته ، والاستقلال فى الرأى والفكر والعمل — وأقول الاستقلال لأن أساس التعليم الجامعى حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، ولأن التربية الجامعية قوامها حرية العمل ، والبعد عن التأثيرات الحكومية ، وتأثيرات البيئات العامية ، وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة » .

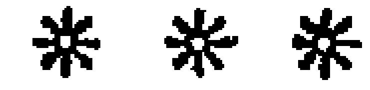
وفى عام ١٩٣٢ حمله حرصه على استقلال الجامعة على الاستقالة وظل بعيدا عن الجامعة حتى سنة ١٩٣٥ ، ليعود اليها من جديد ويكون أول ما عمل أن يستكمل كيانها العلمى فطلب ضم المدارس العليا الأخرى وهى المهندسخانة والزراعة العليا والتجارة العليا ومدرسة الطب البيطرى وأصبحت تلك المدارس كليات جامعية فى العام التالى .

وفى السنوات القلائل التالية اشترك لطفى السيد فى الوزارة ثم تركها الى الجامعة وبقى بها حتى غادرها عام ١٩٤١ ليكون عضوا

بمجلس الشيوخ وقد اضناه الجهد فآثر ان يخلى المكان لغيره من أبنائه .

وتولى بعد ذلك رياسة « مجمع اللغـــة العربية » وكان أول المنادين بانشائه كما كان من أوائل المنادين بانشاء الجامعة المصرية.

ووجد الرجل أمد الله فى عمره ــ من تكريم جيله ماهو قمين به وكانت اشارة الرئيس اليه فى الميثاق بقوله « وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بأن تكون مصر للمصريين » . أبلغ وسام لتقـــدير الجيل لمعلم الجيل .



فهرس

تصحيح

يؤسفنا أن تقع تلك الاخطاء المطبعية التى نلفت اليها نظر القارىء

الصفحة	السطر	الخطأ	
٩	٧	موضوعات	موضوعا
١٣	١٩	الاوصول	الوصول
١٧	٢٤	ونزج	ونزح
١٣	٥ ، ٦	قبل أن تتهيأ	قبل أن يبزغ فى أية
	٧ ، ٨	لنمجتمعات الانسانية	بقعة أخرى من بقاع
		الاخرىعوامل التجمع	العالم ، وبعث المجتمع
		المصرى كاكمل مايكون	المصرى كأكمل ما تكون
		المجتمعات الراقية	المجتمعات الراقية
		وحدة واتساقا وتكاملا	وحدة واتساقا وتكاملا
		قل انه تتهيا	قبل أن تتهيأ
		للمجتمعات الانسانية	للمجتمعات الانسانية
		الاخرىعوامل التجمع	الاخرىعوامل التجمع
		والاستقرار .	والاستقرار
١٩	٩	حضارتها	حضاراتها
٣٣	١٨	المفترس	المفترس النهم
٥١	٣	المجتمع المصرى كما	العرابيةفى تاريخ مصر
٥٢		شهدته فى تلك الفترة	
	١٥	الامم	الأمم
٥٧	١٧	«نفسهم	لأنفسهم
٥٧	١٨	ضهورها	ظهورها
٦٢	١٨	جنبيا	أجنبيا
٦٣	٨	بخمس عشرة سنة	بثلاث عشرة سنة
٦٥	٥	الانصهار	الانصار
٦٥	٧	الخواء	خواء
٦٦	٣	المشراكة	المشاركة

الصفحة	سطر	الخطأ	صواب
٦٦	١٣	الومية	القومية
٧٨	٦	« حماية » أقليات	حماية الاقليات
٧٩	١١	كثيرة	كثير
٨٠	١	العرب	الغرب
٨٤	١١	عن	من
٨٥	٨	ماحدث	ما حدثت
٨٥	١٠	اعتبار أن	اعتبار
٨٥	١٤	تكون	يكون
٨٥	١٥	عربية	غريبة
	١٤	رعوسهم	رؤوسهم
٩٣	١٥	يتوجه	يتجه
١٠٠	١٥	العمثانية	العثمانية
١٠٥	١٥	على دار	عن دار
١٢٥	٢	يطالب فيها	يطلب فيه
١٢٧	٧	حتى أصبح	واصبح
١٤٣	١٧	قرابة الجنس	قرابة فى الجنس
١٥٥	١٤	عنده لنجيب باشا	عنده أنا وستورس ..
١٥٥	١٥	فقلت	فقلت لنجيب باشا ـ



دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

